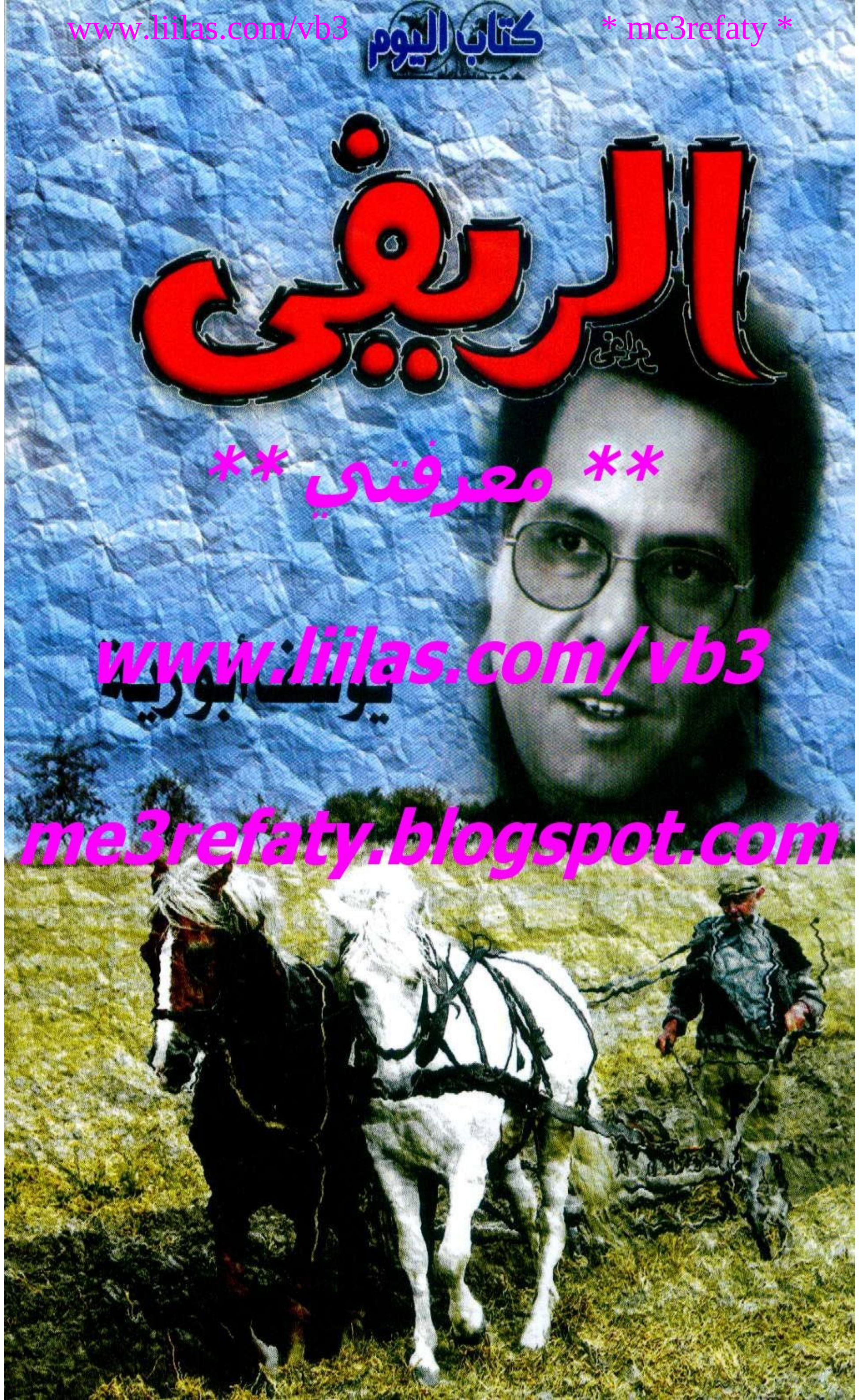

كتاب اليوم
الريفى
يوسف أبورية

كتاب اليوم

رئيس مجلس الإدارة

د. محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نـــوال مصطفى

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٥٢١
مارس ٢٠٠٩

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٢٥٩٤٨٢٢٣
تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الإخراج الفنى:
عبدالقادر محمد على

الغلاف:
نادر مصطفى
حمدى ثابت

**تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية**

أسعار البيع
خارج مصر

سوريا ١٠٠ ل. س - لبنان ٤٠٠٠ ل. ل - الأردن ٢,٢٥ دينار. الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريال - البحرين ١ دينار. قطر ١٠ ريال - الإمارات ١٠ درهم - سلطنة عمان ١ ريال. تونس ٢ دينار - المغرب ٣٠ درهم - اليمن ٣٠ ريال فلسطين ٢ دولار - لندن ٢ ج ك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

الريفى

يوسف أبو ريه

قبـل أن تقــرأ

لا أدرى هل كـان من حـسن حظى أم من سـوئه أن ألتـقى بالكاتب الجميل يوسف أبو رية فى لقاءين متتاليين قبل وفاته المفاجئة. اللقاء الأول الذى جمعنا كان فى أروقة المجلس الأعلى للثقافة، يومها طلبت منه أن يهدينا عملاً من أعماله لننشره فى «كتاب اليوم».

واللقاء الثانى كان عندما حضر إلى مكتبى بـ «أخبار اليوم» ليفى بعهده ويقدم لى الكتاب الذى اتفقنا أنه سيكون لـ «كتاب اليوم».

وتوالت الاتصالات التليفونية بيننا، نناقش خلالها أموراً أدبية وإنسانية وأحياناً سياسية. ولم يكن يبدو فى أى محادثة أو لقاء كئيباً أو حزيناً أو مهموماً، بل كان منطلقاً بقلب صاف، محب للحياة.

لم أكن أعلم، ولم يكن غيرى من الكتاب والأدباء يعلمون بمرض يوسف حتى وصل فى طريق المقاومة الذاتية الأبية إلى منتهاه! فهو تركيبة إنسانية بالغة الرقة، فائضة الإحساس.

صرخت دون أن أدرى عندما سمعت محمود سعد الكاتب الاعلامى الكبير يوجه نداءً عبر برنامجه الشهير «البيت.. بيتك» لإنقاذ يوسف أبو رية.. وعرفت يومها أنه يواجه مرضاً خطيراً هو ورم فى الكبد، وأنه استنفد كل ما يملك فى علاج نفسه (حوالى ١٢٠ ألف جنيه) ولكن المرض كان قد وصل إلى مرحلة ضرورة زرع فص جديد من فصوص الكبد.

اتصلت به فوراً، منزعجة، باكية لأتأكد أنه هو يوسف أبو رية الذى يتحدث عنه محمود سعد، وليس شخصاً آخر.. فابتسم بهدوء..

وقال لى: لا تنزعجى يا نوال.. أنا كويس.. وسأكون بخير إن شاء الله.

ويومها فقط عرفت، وعرف الكثير من اصدقائنا وصديقاتنا من الأدباء والأديبات بأمر يوسف.

عرفنا كم هو مرهف الحس، وكم هو أبي لدرجة أدت إلى نهايته السريعة.. المفاجئة لنا جميعا.

وسارع الجميع لنجدته، طالبنا بالإفراج عن المبلغ الذى خصصه سلطان القاسمى حاكم الشارقة لعلاج الأدباء بعد أن عرفنا أن هناك مشكلة روتينية عقيمة منعت ذلك.

لكن يد القدر كانت أسبق من كل محاولاتنا! مات يوسف وهو فى الثالثة والخمسين من عمره. فى أوج عطائه الأدبى.. هذا الكاتب القدير الذى ترجمت أعماله إلى أكثر من لغة منها الإنجليزية والايطالية والأسبانية. وكان لديه مشروع أدبي عظيم.

هذا الإنسان الجميل المحلق مثل عصفور فى سماء الحب والفن والحياة ذهب إلى حيث العالم الآخر، ربما ليكمل مشروعه الذى لم يكتمل بأسلوب آخر، فى سياق مختلف.

لكن بقيت أعماله الرائعة التى صدر منها مجموعاته القصصية: الضحى العالى (١٩٨٥)، عكس الريح (١٩٨٧)، وش الفجر (١٩٩٣)، ترنيمة الدار (١٩٩٥)، طل النار (١٩٩٧)، شتاء العرى (٢٠٠٣).

ومن الروايات: عطش الصبار (١٩٩٨)، تل الهوى (١٩٩٩)، الجزيرة البيضاء (٢٠٠٠)، ليلة عرس (٢٠٠٢) عاشق الحى (٢٠٠٥)، صمت الطواحين (٢٠٠٧).

وها هى آخر مجموعاته القصصية: «الريفى» بين يدى القارىء. وهى وديعته الأخيرة التى شاء القدر أن أكون أنا حافظتها. «الريفى» تجسد قصصها العالم الأثير للأديب القدير يوسف أبو رية: عالم الريف الذى استوحى منه معظم أفكاره الإبداعية، ومشروعاته الأدبية.. عالم الريف حيث الطبيعة.. الأصالة.. الأخلاق والضمير.. والحنين الدائم إلى المعانى التى غابت عنا فى الزحام!

نوال مصطفى

مارس ٢٠٠٩

عرائس المسجد

ترنحت بين الطاولات في رقصتها المجنونة، ولم تكف عن التصفيق وإطلاق الصفارات ما بين شفتيها المدهونتين بروج فاقع الحمرة.

كان على الطوار يطل عليهم عبر خوذ الجند ودروعهم، لا يستطيع تجاوز الحاجز المحكم، من اللباس الأسود الصلب، عيون الجند تحنو بنظرات الريفيين الوديعة، وإن كانوا على وضع الاستعداد للانقضاض الشرس إذا صدرت لهم الأوامر. أدرك أن اللحاق بالمتظاهرين المتدفقين من أبواب المسجد العتيق مستحيلة.

ضرب رقمها على المحمول...

- أين أنت؟

- فوق... اطلع.

- كيف؟

- على الشمال فندق قديم يطل على الميدان، ستجدني في الـ (رُوف).

كانت تجلس على طاولة مع زميلين آخرين يرددان الهتاف المتصاعد من أسفل، استدارت نحوه وهي ترفع شعرها الأسود المتناثر.

- هنا أكثر أمناً.

ابتسم الشابان وهما يشرئبان نحو النافذة الزجاجية.

- اطلب قهوتك وشيشتك وتابع الموقف.

مسح المكان بعينيه في الخارج رأى القلعة سابحة فى غبار المدينة على شرقها الجبل الجيرى الخالى من الخضرة، فى سفحه مدينة الموتى غارقة فى صمتها، وفى الداخل ينتقل الزبائن بين الطاولات يتابعون التحام المتظاهرين الخارجين من ساحات المسجدين الكبيرين.

- هل هذا كاف؟
- فى المرات السًابقة أُغشي عليَّ من دخان الغاز.
- ولكننا جئنا من أجل الخروج معهم.
- لن يسمحوا هذه المرة حتى لو سال الدم على أسفلت الميدان.
- انظر..

قال الشاب ذو اللحية الخفيفة والشعر المنساب على جانبى الوجه. رأى عربات المطافئ تدفق ماء ملوناً على الأجساد المتماوجة التى تبغى الخروج من بين ضلفتى الباب الكبير.

- انظر..

قال الشاب النحيل الأسمر وهو يمط جسده على إفريز النافذة، رأى فتاة قصيرة بشعر قصير ترتدى سروالاً من الـ(ديرتى جينز) تقفز بعزم وقوة نحو صنبور السيارة الخلفى، فتحته بقبضة واحدة، فاندفق الماء على الأسفلت، خف الخرطوم في يد جندى المطافئ فاستدار بحُلته الفسفورية الفاقعة اللون وخوذته الطويلة التى تغطى نصف وجهه ومعظم قفاه، أشار للضابط بيده بما يدل أنه لا دخل له بهذا العطل، أومأ الضابط نحوه ليأمره بالبقاء مكانه، ثم كشَّر نحو الجند الممسكين بسيور جلدية قوية تطوق كلاباً بوليسية هائجة، أمرهم بالتقدم إلى الأمام، فاندفعت الكلاب مزمجرة نحو الباب الكبير، تراجع المتظاهرون إلى الخلف فى هلع بعد أن سقط الكثير منهم على ظهره، ورأى كلباً آخر ينحرف مع مرافقه نحو الفتاة ليجرجرها من طرف سروالها، سحبها نحو الأسفلت، وركبها وهو يبدى لثة حمراء ملتهبة تبرز منها أنياب بيضاء ناصعة تعضعض فى أنحاء البدن القصير. كانت البنت تتلمص منه صارخة

فى وجهه، تحاول السيطرة عليه بذراعيها وساقيها حتى أفلحت بإلقائه على الأرض لتقوم نافضة أنحاء جسدها الذى تهرأ بخمشات موجعة. كانت تلملم نسيج القميص الممزق الذى أزاح مساحات كثيرة غير مثيرة على الجانبين وعلى الصدر وفى دائرة السُرة.

رأى الحسرة فى عين صديقته، تنهدت وهى تنهار على المقعد ومالت بوجهها إلى أسفل، أخرجت من حقيبتها ورقة (كلينكس) مسحت بها دمعة طفرت من عين واحدة، ولكنها لم تنس أن تطل بوجهها فى المرآة الدائرية الصغيرة المثبتة فى الحقيبة.

- أنذال.. أنذال.

صرخ الشاب ذو اللحية الخفيفة.

- فعلا كلاب سلطة.

أدارت وجهها عنه وهى تردد بصوت حزين.

- أنذال.

قال الشاب النحيل ذو الوجه الأسمر.

- طبعاً.

ثم صرخت فيهم وهى تود القيام.

- بل نحن الأنذال.

قالها وهو ينفث الدخان فوق الطاولة، ويرشف وجه الفنجان.

- أنت اخترت المكان.

- ولماذَا لحقت بنا؟

- اتفقنا على القدوم مبكراً لنلحق بهم قبل أن يحكموا عليهم الحصار.

- ولماذا لم تلحق بهم أنت.

- كيف أتركك وحدك؟

- جئت لتحمنى وأنت عاجز عن حماية نفسك.

- لست بحاجة إلى حمايتى وبصحبتك (بودى جارد) عن يمينك وشمالك.

- هى الغيرة إذن!

- انظروا...

صاح الشاب النحيل الأسود نحو سطح المسجد. قاموا جميعاً ليقفوا خلف الزجاج في مواجهة الشمس الواقفة على هلال المئذنة.

رأوا صبية صغاراً نجحوا فى التسلل خفية من صحن المسجد إلى سلم المئذنة إلى السطح الملتهب بحرارة الشمس العمودية، كانوا قد أفلحوا فى تكسير عدد كبير من بلاط الأرضية، اتخذوا مواقعهم خلف عرائس السطح التى تتشابك كصف الجنود المحاصرين للمسجد، أخفوا رؤوسهم، وبدأوا في إلقاء الحجارة على الجُند، فسقط واحد على الأرض واضعاً كفه على وجهه النازف، أحاط به رفاقه ورفعوه إلى عربة مدرعة زيتية اللون، ثم سقط آخر وهو يتقلب فى زيّه الأسود على أسفلت الميدان الأسود، ارتبك صف الجند المواجه للباب الكبير، فأمرهم الضابط بالتراجع، ثم أشار إلى عربة مطافئ أخرى اتخذت موقعاً بديلاً للعربة التى أفرغت الفتاة ماءها.

اندفع الماء الملون نحو السقف، ولم يبال الصبية ظلوا ثابتين فى مواقعهم خلف العرائس الحجرية التى تحمى وجوههم من دفقات الماء. نجح فريق من الجند فى الصعود إليهم بسلم المطافئ، وأمسكوا بهم جميعاً ألقوا بهم نحو المداخل فتلقفهم فريق آخر، وأدخلوهم عنوة فى العربة المدرعة زيتية اللون، لم يستسلم الصبية مدوا وجوههم باتجاه النوافذ السلكية الغليظة وظلوا يرددون كلمات مهشمة من الهتافات التى التقطوها من شباب المظاهرة.

ترنحت بين الطاولات فى رقصتها المجنونة، ولم تكف عن التصفيق وإطلاق الصفارات ما بين شفتيها المدهونتين بروج فاقع الحمرة.

- هؤلاء هم المستقبل.

لم تدم بهجتها طويلا..

نجح الجند فى اقتحام المسجد ودخلوا بنعالهم السوداء المربوطة

حتى الركبة مصدرين الدروع أمام وجوههم يتلقون الحجارة على خوذهم ودروعهم وأخرجوا الجميع مكبلين من الخلف تتلقفهم العربات الكبيرة التى تقدمت من الشوارع الجانبية، ونجح البعض فى إطلاق ساقيه للريح نحو مدينة الموتى، لم يعترضهم الجند لأنهم كما استجابوا لصيحة فى مكبرات الصوت المحمولة على الأيدى.

- دعوهم.

كرروا النداء للجند.

- لا تسمحوا لهم بالدخول إلى الأزقة والحارات.

سقطت الشمس من فوق الهلال، وامتد ظل المئذنة على أرض الميدان.

ساد السكون، وفُتحت أبواب المحلات. وخرجت البضائع إلى الأرصفة، كأن شيئاً لم يحدث من قبل.

كانت الصديقة قد انتشت برقصتها، تؤكد من حين لآخر: إن البطولة هذه المرة لهؤلاء الصغار.

وظل ذو اللحية الخفيفة والشاب النحيل صامتين منصتين إليها بتعاطف، وبعد أن طالت الجلسة أكثر مما ينبغى.

سألت الجميع: ما الخطة الآن؟

قال الشاب ذو اللحية: أنا جوعان.

وقال الأسمر النحيل: وأنا عطشان.

رفعت حقيبتها عن الطاولة، وعدّلت وضع شالها على كتفها وسألته: هل ستأتى معنا؟

ودون أن يجيب لحق بهم، سارت فى المقدمة لتضغط زر المصعد برقة، وكانت تبحث بين أشياء الحقيبة عن جنيهين لعامل المصعد.

نزيــــف

" دخلت السيارة، وقبل أن تضع يدها على المقود، سحبت منديلاً ورقياً من العلبة، ومسحت دموعاً حقيقية، ثم سحبت آخر لتفرك به طرف أنفها الذى تدفق منه دمٌ مفاجئ. "

-١-

اتفقنا على اللقاء ظهر هذا اليوم، انتظرها طويلاً، وكانت قوات الأمن قد نجحت فى تفريغ الميدان وتفريق المظاهرة، أقاموا صفاً طويلاً من باب الأزهر الجانبى حتى يضطر الخارجون من الصحن للصعود إلى أعلى نحو الطريق الدائرى، وأغلقوا تماماً الشارع الرئيسى المؤدى إلى وسط المدينة.

اتصل على الموبايل، وكان صوتها مضطرباً وعصبياً.

- إنهم يمنعوننا.
- اركنى السيارة فى (الباركينج) وتمشى على قدميك.
- هل ستنتظر كل هذه المدة؟
- أنا على المقهى المواجه للمشهد الحسينى.
- ما اسمه؟
- اسألى عن مقهى السنوسى.

جاءت لاهثة، ووقفت تنظر بحيرة فى أنحاء الساحة التى لا ظل لها، رآها وهى تخرج الموبايل من الحقيبة، مررت أصابعها بعصبية على الأرقام.

- أنا أمام المشهد.
- وأنا على يسارك تماماً.. إننى أراك بوضوح.

أقبلت وهى تكظم بسمة مرهقة على شفتين نحيلتين مررت عليهما لوناً بنياً داكناً يليق بالمناسبة، وكانت قد جمعت شعرها القصير فى ضفيرة وحيدة، مدت يداً ضاجة بأساور فضية عليها فصوص حمراء وخضراء وفيروزية، وتدلى من أذنيها الصغيرتين قرطان فضيان كبيران على هيئة مخرطة الملوخية.

جلست إلى جواره تحت ظل الجدار المرتفع تضغط كفيها الجافتين تنتأ منها أصابع هشة، بدت سلامياتها قطعة قطعة كما بدت أوردة خضراء تنتفض لدفق الدم الذى يدوّم فى قلبها الرهيف.

- شاى بنعناع؟

- طبعاً.

وانبجست الضحكة التى لم تدم طويلاً.

كانت حزينة لأنها لم تلحق بالمظاهرة، قالت: غلّقوا شوارع وسط البلد، فانتظرنا مدة، قلنا ربما تقدمت المظاهرة نحو ميدان الأوبرا ولكن القادمين من جهة الأزهر أكدوا إنهم قد فضوها ولم يخرج أحد إلى الشارع.

- أنا نفدت بجلدى، تصنّعت البراءة وكأن الأمر لا يعنينى بالمرة سألنى الضابط عن وجهتى قلت له أنا من سكان هذا الحى.

تألقت عيناها الصغيرتان، وأدامت التحديق فى وجهه بإعجاب.

- ليتنى كنت معك.

- أنت معى الآن.

- لا.. يا حرام كنت أريد الاشتراك مثلك.

- أنا لم أشترك، كنت بالخارج.

- يا حرام.. لازم نشترك بأى وسيلة.

رفعت الكوب إلى شفتيها بحرص، رشفت رشفة خفيفة دون صوت.

- لا.. يا حرام لابد من فعل إيجابى.
- كيف وقد عاد الجميع إلى بيوتهم.
- عندى فكرة.
- ما هى؟
- نتبرع بالدم..
- لا بأس..
- هيا بنا.

وتركت الكوب يطلق بخاره الذى يحوم حول أوراق النعناع الريانة الموزعة على حوافه، دفع الحساب للجرسون، وسعى وراءها بهمة، كان لابد من قطع المسافة الطويلة حتى (الباركينج) الرئيسى بميدان الأوبرا ثم يكملان بالسيارة إلى شارع رمسيس، بعدها ينحرفان قليلاً باتجاه الجلاء حيث الهلال الأحمر.

-٢-

المكان ساكن تماماً عدا تليفزيون معلق بدعامات سوداء فى ركن مرتفع، والكراسى البلاستيكية الموزعة فارغة جميعها، والكونتر الزجاجى يطل منه رأس ممرضة سمينة تضع سماعة التليفون على كتفها الأيسر، وتكتب بيدها اليمنى ما يملى عليها لم تحفل بدخولهما. وقفا طويلاً أمام الفتحة المقوسة فى الزجاج.. حين انتهت من المكالمة نظرت إليهما باندهاش.

- نعم؟

قالت لها: نريد التبرع بالدم لأطفال فلسطين.

مطت الممرضة شفتيها، وأشارت نحو الممر الطويل المضاء بنور الفلورسنت الباهت.

- الدكتور عصام هو المسئول.

تقدما متجاورين يطلان برأسيهما على الغرف المفتوحة والفارغة من البشر حتى عثرا على طبيب قصير القامة يجرجر تحت قدميه معطفاً ويضع سماعة على قفاه تتدلى حتى تصل إلى ما بين فخذيه، أقبلت نحوه بانحناءة مهذبة وقالت فيما يشبه

الرجاء.

- لو سمحت حضرتك نريد التبرع بالدم لأطفال الانتفاضة.

بادلها تهذيباً وانحنى أمامها حتى لامست السماعة بلاط الأرضية.

- نشكرك على مشاعرك الوطنية الطيبة.

قال للطبيب.

- لم نأت من أجل تلقى الشكر بل من أجل التبرع.

لم يلتفت إليه بالمرة وواصل حديثه إليها.

- لدينا ما يكفى ويزيد عن الحاجة من الدم.

- يا حرام.. ولماذا لم يرسل إليهم هناك !!

- هذه هى المشكلة، لم تأت الأوامر بعد بإرساله.

- لو سمحت حضرتك لابد أن أشارك بأى شئ.

- تعالى بعد أسبوع، ربما نكون قد أرسلنا الكمية الموجودة.

- خذ أى كمية منى.. لو سمحت.

- ليس لدى مكان لإضافة المزيد.

- يا حرام.. يا حرام..

أخذها من كتفيها ليتجها نحو الباب، قال ليهدئ من روعها:

- خلاص نأتى بعد أسبوع.

- يا حرام.

دخلت السيارة، وقبل أن تضع يدها على المقود، سحبت منديلاً ورقياً من العلبة، ومسحت دموعاً حقيقية، ثم سحبت آخر لتفرك به طرف أنفها الذى تدفق منه دم مفاجئ.

أمال رأسها إلى الوراء، وسد فتحتي الأنف بالسبابة والإبهام، قال لها: تنفسى من فمك حتى يتوقف النزيف.

صلاة الحبيب

و حين اعتلى المنبر الشيخ الذى يملأ شاشة التليفزيون بطلعته ليل نهار، نفر الزملاء من سحنته. وتململت الأجساد بين الصفوف مستنفرة لحضوره البغيض.

اقتربا الآن من باب المزينين، بعد أن قطعا شارع الأزهر بطوله بين صفين من عساكر الأمن المركزى، حوّلوا مسارات السيارات من ميدان العتبة، فكان الشارع هادئاً على غير العادة.

رفعت جانيت نظرها بحذر نحو المدخل لتطال النقوش التى تؤطر الواجهة.

- دوسة.. هذه شجرة الحياة الفرعونية.
- أول مرة أنتبه لتفاصيل النقش.

ثم قالت متوجسة وهى تخلع نعليها.

- أنا خائفة.
- ضعى الإيشارب على رأسك هكذا.

جعلت حزمة المنشورات والأعلام تحت إبطها، وفتحت غلق حقيبة اليد السوداء لتخرج الإيشارب الرمادى، سحبته على شعرها المصبوغ باللون الذهبى الداكن، وعقدت الطرفين تحت ذقنها، تماماً كما فعلت فردوس التى أمسكتها من كفها ليهبطا الدرجات الرخامية الزلقة.

- احذرى السقوط فهشاشة العظام ستحطمنا تحطيماً.
- ربنا يستر.
- لم أدخل مسجداً فى حياتى يا دوسة.

- أنا نفسى لم أفعلها من قبل.
- طيب والصلاة ؟
- افعلى كما يفعل الآخرون، لا شئ أكثر من قراءة الفاتحة بصوت خفيض، وركعتين وسجدتين.
- وحياتك.. لما أغلط اضربينى بكوعك.
- حاضر يا جانيت.

خلعتا النعال، لم يردا تركها على الأرفف الخشبية المعدة لذلك، كانتا حريصتين على أن يجعلا كل شئ بالقرب منهما، حتى إذا تجرأت قوات الأمن على اقتحام المسجد تكون الفرصة متاحة للفرار بالنعلين على أن يتخلصا من المنشورات فى الوقت المناسب.

وقفتا مبهورتين بالنور الذى تدفق فجأة فى الصحن الرحب، كان المسجد هادئاً، أجساد قليلة تتحرك هناك فى ظلال الإيوان، لمحهما جورج فقطع مساحة الضوء رافعاً كفه على عينيه.

ابتسمت له فردوس بسعادة حقيقية.

- نص المصلين من المسيحيين اليوم.
- يا ستى حد يقدر يمنعك لو صليت فى الكنيسة.

مالت جانيت بوجهها المريمى إلى الأرض بخجل، أراد جورج أن يمسك بيديها مرحباً، رفعت عينيها إليه وهى تقاوم قرص الشمس الملتهب.

- شفتنى فى الحجاب يا جوجو.
- زادك جمالاً.

وتلامست الأكف بحنو، تنحنحت فردوس وقالت محذرة.

- المفروض أنكما على وضوء..

فاتقدت وجنتا جانيت فى حياء..

- صحيح نسيت.

أشار جورج إليهما قائلاً: المفروض أن تتجها شمالاً حيث مصلى السيدات.. وأنا سأعود الآن إلى الزملاء.

تشجعت جانيت ولحقت به قليلاً كأنها لا تريد مفارقته.

- لم تقل لنا ماذا سنفعل؟

- عند نهاية الصلاة، وحين نردد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، تخرجى المنشورات والأعلام من تحت السجادة، وتبعثرينها على المصلين فى كافة الأنحاء.

- يعنى طول الصلاة نخفيها تحتنا؟

- طبعاً، لا نضمن اقتحامهم فى أى وقت.

وشدتها فردوس من ذراعها، لتتجه بها نحو الزميلات اللائى قدمن للتو من الباب الجانبى.

- حَبك الغرام فى جامعنا.

- لم أكن أتوقع أن يتعرف على وجهى فى الحجاب.

- نورك يا ست الكل لا يقاوم.

- الظاهر جئنا قبل الأوان بكثير..

ثم سألت وهى تدعى السذاجة.

- ولم لا يصلى الرجال والنساء فى مكان واحد يا دوسة؟

- والله هذه مسألة خارج إرادتى، اسألى أهل الذكر.

- عندنا الصلاة مشتركة.

- كل شيخ وله طريقة يا جانيت.

- اذهبى إليه لتصلى إلى جواره.. وأنا غير مسئولة عما سيحدث لك.

- ولماذا لا يأتى هو ليصلى معنا هنا؟

- نهارك أسود.. الزمى الصمت حتى يمر اليوم على خير.

حين اعتلى المنبر الشيخ الذى يملأ شاشة التليفزيون بطلعته ليل نهار، نفر الزملاء من سحنته. وتململت الأجساد بين الصفوف مستنفرة لحضوره البغيض.

صعد الدرجات بثقل بدنه اللحيم، ثم قعد فترة يحدق فى الوجوه، لم يخرج مرتدياً الحلة ورابطة العنق مبدياً مظهراً أنيقاً

يحرص عليه فى كل لقاء، بل أطل عليهم فى عباءته البنية السميكة وبالطاقية المخرمة البيضاء التى أكدت دكنة الزبيبة البارزة على الجبهة.

بعد أن أنهى ديباجة الخطبة، أكد للجميع أن موضوعه اليوم يدور حول الجهاد فى الإسلام، وصال وجال، وأقبل وأدبر، يحوم حول الموضوع مجتهداً فئ العثور على ما يؤكد وجهة نظره المنافقة، فقلب الأشياء فى غير موضوعها، ووصف العمليات الفدائية فى الأرض المحتلة بأنها مجرد انتحار وإهلاك للنفس التى حرم الله قتلها بغير الحق، ثم إنها لا تنجز شيئاً حقيقياً لأنها موجهة فى الأساس ضد المدنيين الأبرياء.

فهاج المصلون، ورفع أحدهم اصبعه فى وجهه صارخاً: اخرس.

فأجابه الشيخ بغضب: بل اخرس أنت يا قليل الأدب.

فقام الجميع دون إرادة منهم متجهين إلى المنبر، فتبعهم رجال الأمن بالملابس الملكية، ورفعوا الشيخ على أكتافهم، ليخرجوا به من باب صغير ضيق يقع على يمين المنبر.

ولم يعد المصلون إلى صفوفهم، انطلقت الحناجر بالهتاف يتردد فى جنبات الإيوان تنتقل من عمود إلى عمود ثم تحركت فى موجات صاخبة إلى الصحن المكشوف، ثم إلى مصلى السيدات، واختلطت الصفوف، وصارت حلقات تدور حول الجسد النحيل لجورج الذى حمل على كتف أحدهم، يرفع علم فلسطين بقبضة يده هاتفاً بعزم صوته الحاد: فلسطين عربية، وانتثرت فى سماء المسجد أوراق كثيرة انهالت كمطر سماوى فى غير أوانه.

شدت فردوس صديقتها جانيت من ذراعها واخترقتا الأجساد المتزاحمة .. لتقترب أكثر من البؤرة الهائجة التى يرتفع فى وسطها جسد جورج.

كان العرق يتصبب من الوجوه.

وضاقت البنات بالإيشاربات الخانقة، سحبت جانيت إيشاربها

فـأشـرقت وردتان حمـراوان فى خديها، كانت تردد الهتاف رافعة الإيشارب عالياً، تشير به نحو جورج.

وفى حـميمـيـة الازدحام بين حـرارة شـمس لا ترحـم، لم يحفل أحد بمشـهد الجنود الذين وقـفوا على سطح المسـجد مشـهرين فوهات بنادق الغاز نحوهم.

كتاب عمر

لم يجد البائع ضرورة لسماع هذه الحكاية فانسحب من أمامهما، وعاد يكرر جولته بين الطاولات قاطعاً لغط الزبائن: كله من الصين.

للمقهى بابان مفتوحان على الشارع الضاج بسيارات الأجرة والملاكى والنقل العام، تتسرب عبر هوائه رائحة السجق المقلى وعادم السيارات.

بالداخل ترتفع أصوات رواده المجتمعين على طاولات قديمة مختلطة بمذياع يردد القرآن المرتل بإيقاع رتيب.

جلس يقلب النظر فى الوجوه غير الحليقة والأفواة التى تلوك شطائر السجق والطعمية، ويحدق فى دخان الشيشة التى قبض على مبسمها باصبعين اصفرّا من كثرة الاستخدام.

دخل الرجل بجلباب واسع الأكمام وشبشب (زنوبة)، كان يرفع بضاعة كثيرة بين يديه، ولكنها خفيفة الوزن. سماعات للهواتف، وبيانو طويل يضرب على أزراره عزفاً عشوائياً، ولعب أطفال كثيرة. عدد بصوتٍ منغم أصناف البضاعة وهو يتجول بين الطاولات، ثم وقف طويلاً أمامه.

- تليفون بالألوان الطبيعية يا بيه.

- شكراً.

- هات ثلاثين.

- يا أخى عجيبة بلاد الصين هذه.. لم تترك شيئاً لم تصنعه.

والتفت إلى جاره على الطاولة، لم ينتبه إليه من قبل، اكتشفه

فجأة، يقارب الستين من عمره، يرتدى قميصاً أبيض مكرمشاً، ويتهدل سرواله الممزع على ساقين نحيلتين، ترتفعان على نعلين ضخمين.

مالت كل فردة فى جهة، كأنها أكثر إرهاقاً من صاحبها.

عصر الرجل عينيه فى منديل مكور أخرجه من فتحة السروال، ثم مرره على ذقنه غير المشذبة، رشف من كوبه رشفة خفيفة، فسمع ضربة طاقم الأسنان وهو يمسك بالحافة.

- تسمع أنت عن الصين طبعاً؟

- لا .. والله.

أجابه ببراءة ليعطى الرجل الفرصة كاملة ليعرف كيف يرى هذه البلاد النائية.

- كان يحكمها فى يوم من الأيام رجل اسمه ماو.

- يا سلام!! ماو.

لم يجد البائع ضرورة لسماع هذه الحكاية فانسحب من أمامهما، وعاد يكرر جولته بين الطاولات قاطعاً لغط الزبائن: كله من الصين.

- مات من زمان.

- الله يرحمه.

- بعد موته عثروا على كتاب لسيدنا عمر بن الخطاب تحت مخدته.

- يا سلام !!

- أمّال يا أستاذ، سيدنا عمر كان رجلاً عادلاً، يقول للبطّال أنت بطّال فى عينه.

- أعرف هذا عنه.

- ماو لما قرأ هذا الكتاب أقام العدل فى بلاده على طريقة سيدنا عمر.

- وهنا سر تقدم الصين؟

- الله ينور عليك.

- سيدنا عمر لا مثيل له.

- قال له الرجل حين ذهب إليه فى المدينة يشكو أحد رجاله فوجده واضعاً رأسه على نعله ومستغرقاً فى النوم تحت نخلة "حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر...".

- الله ينور عليك.

- ولكنه مات مقتولاً.

- لا إله إلا الله.. هذا أجله.. والأعمار بيد الله.

- ونعم بالله.

- سيدنا عمر أراد ذات يوم الاطمئنان على جيشه.

- أيوه يا سيدى.

- راح بلاد كان اسمها الأندلس.

- اليوم يسمونها أسبانيا.

- الله أعلم.

حرّك نار الشيشة بطرف المبسم، ولم يرد تصحيح المعلومة للرجل، وترك الرجل يقص الحكاية كما نقلت إليه، فهى على كل حال لا تخلو من متعة، وكان قائد الجيش هناك أبو عبيدة الجراح (هذا خطأ آخر لم يرد تصحيحه).

- كان بطل ولا كل الأبطال.. شوف سعادتك عظمة هذا الرجل ينشر الإسلام من بلاد الشام إلى الأندلس.

وبدأ يعجل فى سرد الحكاية، ينظر إلى ساعة يده مقرباً عينيه من العقربين، ثم يلتفت إلى الخارج يرقب تدافع المنتظرين على محطة الأتوبيس المقابلة للمقهى.

- أظن أن أبا عبيدة لم تتجاوز حروبه بلاد الشام.

- لا إله إلا الله.. هل تنكر التاريخ يا أستاذ؟

- ماذا يقول التاريخ؟

- يقول يا سيدى إن بعد معركة كبيرة مع أهل هذه البلاد جلس أبو عبيدة تحت ظل شجرة إلى جوار سيدنا عمر. فقال له سيدنا عمر: هل أنت بخيل يا أبا عبيدة؟ فسأله بدهشة: كيف يا أمير المؤمنين؟ فأجابه عمر: لماذا لا تستضفينى فى بيتك؟ فطأطأ أبو عبيدة برأسه إلى الأرض، ورد عليه بخجل: لا داعى يا أمير

المؤمنين.

- أيعجز قائد الجيوش عن دعوة سيده فى بيته؟

- انتظر ولا تتعجل

وأعاد النظر إلى ساعته، ورمق الأتوبيس الذى تزاحم عليه الركاب، ضيق من عينيه ليرى رقمه، ثم عاود قص حكايته.

- ألح سيدنا عمر، وأبو عبيدة يرفض حتى غضب سيدنا عمر، وقال نافضاً ثوبه فى وجهه، كيف تجرؤ على حرمانى من استضافتى فى بيتك؟ وأبو عبيدة يردد بخجل "لا داعى يا أمير المؤمنين" وأصر سيدنا عمر، فأخذه الرجل بعيداً عن ساحة القتال، وأدخله قطعة أرض مسورة بجدار طين لا يخفى شيئاً، ثم مال نحو قفة ملقاة فى ركن بين جدارين وأخرج منها كسرة خبز جاف وقال لسيدنا عمر: هذا بيتى، وهذه ضيافتى أتقبل يا أمير المؤمنين؟ فبكى سيدنا عمر، وألقى بجسده فى حضن قائده وهو يقول: سامحنى يا أبا عبيدة.

رمى الرجل حسابه فجأة على الصينية، وانطلق مسرعاً ليلحق بالأتوبيس الذى يمتلئ عن آخره بالركاب، أمسك باليد الحديدية، ولحق بحافة السلم.

وقبل أن ينطلق الأتوبيس مال بجذعه نحو المقهى رافعاً ذراعه الطويلة الجافة.

- سلام.

أشار إليه الجالس وحيداً على الطاولة وهو معلق بحكايته لا يدرى هل كان هذا ختامها أم أن لها بقية؟ وظل لفترة طويلة صامتاً مستغرقاً فى السحر الذى أحدثه الرجل.

انطفأت نار الشيشة، وتطاير تراب الفحم على فخذيه، رفع يده ليمتص الثمالة المترسبة فى قاع الكوب، وخرج متفادياً الطاولات المزدحمة، ومرر كتفه بحذر حتى لا تلمس بضاعة الرجل الذى لم يكف عن النداء، وعرض مزايا الهواتف والبيانو ولعب الأطفال.

حتف العصافير

ولسعت النار التى بيده يده، ولسعت النار التى بفؤاده فؤاده، فانتفض من النارين. قالت النسوة حوله: سلامتك من كل عين.

- أ -

ولدتها أمها ـ ذات فجر ـ في بيت من الطين معتم، وأمها امرأة من قرية تقع على النهر الذى تسامقت على حوافه أشجار العبل، وخرجت من بطنه روافد لقنوات كثيرة تروى الأرض الممتدة.

حين صارت الطفلة صبية بضفيرتين تنتهيان بشريطين على هيئة وردة صحبها أبوها بين الحقول تجمع البرسيم، وتنطلق خلف نعجتين له ترعيان الحشائش النابتة على الشطآن، وفى مواسم القطن، تلم مع رفيقاتها زهر القطن الذى تفتح على تيل أبيض مندلق على السيقان وعلى الأوراق الجافة.

فى مواسم الحب كانت تلقط الحب الساقط من أحمال الجمال.. فى الدار علمتها أمها كيف تتصيد الروث من الدواب لتسوى منه أقراصاً تصفها بين حطب السطح لتجف بدفء الشمس.

حين صارت شابة علمتها كيف ترفع ماء الترعة فى جرة ترسخ على رأسها، كما علمتها كيف تقدح السمن، وتقلى البصلة، وتخلط الطماطم، وكيف تعارك العجين، وكيف تحيل كرة العجين إلى رغيف يتقافز بين يديها تسويه سخونة الفرن المتقد.

- ب -

من البلد البعيد يهبط الباعة الجائلون وصناع غرابيل الحَب، ومناخل الدقيق، ورجال يبيعون القفف والمقاطف، وفتية يلحمون بالنار نعال البلاستيك.

كان يجلس هناك عند مدار الساقية، تحت ظلة شجر التوت أمامه وابور بوش، ونسوة على رؤوسهن أغطية.

لما رأت عينه البنت المقبلة حضنها بشوق كان راقداً فى الدم منذ عهد قديم، أزاحت العين الجريئة غطاء الرأس، وحلت الشعر المنسدل كأغصان صفصافة، صعدت ربوة الصدر النائم، ثم هبطت على البطن، ونامت.

لسعت النار التى بيده يده، ولسعت النار التى بفؤاده فؤاده، فانتفض من النارين.

قالت النسوة حوله: سلامتك من كل عين.

حدّث أباها قال: إننى لم أرتد زى الجند، ولم أطعم عدسهم بعد، اطلب ابنتك فهى دون البنات تمددت بقلبى، سآخذها معى إلى بلدى التى تقام بها الأسواق، وتجرى فيها القطارات، كما تجرى العربات بين دورها على طريق الأسفلت، يسكن ناسها بيوتاً ترتفع طابقين وثلاثة..

سيصير لى - فى الغد - بيت ودكان أجعله لبيع النعال الجاهزة وإصلاح الهالك منها إن شاء الله.

قال الأب من فوره: هى لك.. فأنت طيب، لولا كنت أريدها هنا إلى جوارى، وبالقرب من أمها التى تحبها.

- ج -

أسكنها لحّام النعال غرفة فرشها بحصير لامع جديد، وصوان بداخله مرآة كبيرة، وسرير بأربعة أعمدة سود، ترتفع إلى السقف يحوطها داير أبيض مرسوم عليه ملائكة صغار تحلق بأجنحة، وعليه ملاءة يتناثر عليها ورد أحمر كبير. ووسادة على جانبيها عصافير تشقشق وتضرب بأجنحتها الصغيرة الهواء حين ترى

الجسدين يلتحمان فى ذبالة المصباح المعلق فى الركن، تحط عليهما لترتوى كل واحدة بقطرة عرق ثم تستكين فى مكانها على جانب الوسادة.

(ولما أطلق النفير، وتخضب الأفق بلون النار، زمجرت الحرب لتطرد الغرباء الذين دقوا أوتادهم على الجانب الآخر من البلاد، نودى على الرجال، واقتيدوا إلى هنالك بوجوههم المغبرة).

مكثت البنت فى فراغ الغرفة تحادث نفسها: يا رب كيف يؤخذ إلى هناك، وأنا عروس لم أذق من بستانه غير ثمرة، أو ثمرتين.

- د -

بالليل نامت وحيدة تعارك جسدها. طوت الوسادة بين الرأس المحموم، فاختفت العصافير بين ثنايا شعرها المحلول.

الحمال

« هجر الدار ليوفر إيجارها، فزاد قسطه من "البوظة".. في الصيف يكون الطقس دافئاً ومؤنساً.. يستطيع النوم في أي مكان.. بين أدوات بائع الفول اختار مأواه. »

نامت القطارات فى المدن البعيدة.. وبوابة المحطة ظلت مرفوعة فى سكون منذ آخر قطار.. ظل الرصيف مضاء بمصباح وحيد.. وعربات الحمالين المتراصة إلى جانب السور العالى، وكشك الفاكهة الخشبى، وأدوات بائع الفول، والجسد المنهك مستند إليها، والعينان اليقظتان والصوت لم يزل فى الأذن يدوى.

"يا أهل البلد.. تمت الموافقة على إقامة المصنع".

■ ■ ■

ينتظر القطارات.. يهبط تجار البلد الكبار والأثرياء والغرباء على الكتف فوق الجاكتة المتسخة تتكوم الحمولات.. الشوارع المتعرجة والسلالم الحلزونية.. ينزل الحمولات.. ينال القروش القليلة.. قطار آخر وجولة جديدة.. حتى يغشى الرصيف الضوء الشاحب لمصباح المحطة.. يغتسل فى المسجد الصغير.. وهناك يقضى سهرته يفترش القش وسط زحام الحوذية، والحمالين وصبية موقف السيارات.. بين الحين والآخر يجرع "البوظة" من الكوز الكبير.. أو يشارك الرجال فى حلقة الحشيش ليس الحشيش دائماً، "البوظة قوية وقادرة،

بعنفها غير المحدود تسقط عقله فى قدمه، يتسرب الرجال الواحد بعد الآخر وهو معهم.

■ ■ ■

كان ظهراً.. وكان نائما على كرسى المحطة.. رأسه بين ذراعيه.. والذباب تكوم حول فمه وقدميه الحافيتين المجروحتين، أيقظته الجارة العجوز قالت: "ماتت نعمة" لمَّ طرفى جلبابه بين أصابعه.. اتجه إلى الدار غير مصدق لم يبالى الكون لموت نعمة، وحده الذى سالت دموعه هادئة ساخنة على خديه الغائرين.. كانت الحجرة ساكنة، فتح الباب، الحصير القديم فوقه الجسد الحبيب عليه اللحاف المتآكل.. (فايزة) الصغيرة إلى جوار امرأة ذاهلة، والطبلية المستندة على الجدار، والوابور، والطست بداخله مقعد خشبى وصابونة خضراء، والأوانى المسودة.

أجهش بالبكاء فواسته النساء.. كانت الشمس محمرة وقريبة دافئة حين وقف ينظر إلى الغالية تدخل فتحة القبر، كانت غالية وحبيبة.. تعمل فى الدور لتضع القرش على القرش وتوفر إيجار الدار، وثمن الطعام.. كانت الخمر تمتص منه معظم القروش.

■ ■ ■

كان ينفخ دخان الجوزة على المقهى حين سمع أن الحكومة تنوى بناء مصنع فى البلد، لم يحفل بالأمر.. قال رجل: إنه سيلم العاطلين، قال عمال البناء فى حلقة المقهى: العمل به أفضل.. راتب مضمون آخر الشهر.. ومعاش.. وتأمين، اتسعت دائرة الكلام وشملت كل البلد، استعد الملاك لقبض أثمان أراضيهم.. وتهيأ المستأجرون لهجرة الأرض، قالوا لهم: أنكم ستعوضون بالعمل خفراء أو حمالين أو بوابين فى المصنع.. ورأى الحمالون والفواعلية والأجراء، وبعض الحلاقين الذين لم

يعودوا يكتسبون بعملهم أن أبواب الخير قد فتحت لهم.

حين فرغت الدار من نعمة سلَّم ابنته للحاج تاجر الجملة.. قال له: يا صبرى ابنتك لا تصلح لشئ.. ولو لمشاوير الست.. ولكنها صغيرة.. من فيض خيرك تكبر وتدير البيت على أحسن ما يكون.. ووافق على مضض.

هجر الدار ليوفر إيجارها، فزاد قسطه من "البوظة".. فى الصيف يكون الطقس دافئاً ومؤنساً.. يستطيع النوم فى أى مكان.. بين أدوات بائع الفول اختار مأواه.

■■■

كان قطار الخامسة حين نزل الرجل بجلبابه الصوفى المهيب، وبتلفيحته المتأنقة المزركشة تتدلى على كتفه.. جرى نحوه ورفع بهمة الحقيبة المنتفخة.. الرجل أمامه يمشى فى جلال يحيى الباعة، ويتوقف للحظات يحادث رجلا.. ويعده بأمر.. حينما اقتربت الدار اقترب منه وهمس:

- أريد أن أعمل فى المصنع يا حاج.. قال: بعدين.. بعدين.

ذات صباح قال للرجال على المقهى: سأعمل فى المصنع (وراح صيف.. وجاء صيف وصيف، والأرض تخرج الزرع فيحصده الرجال والقطارات تأتى لتذهب، والأحمال لا تزال على الكتف ما بين المحطة والمنازل، وليل وألف ليل جاء.. جلس على القش بين الأجساد المتعبة وجرع البوظة.. ونام بين الأعمدة التى تحمل طاسة القلى، وبين الطاولة تحت مظلة الخيش- ينتظر باب الخير أن يُفتح له).

السيارة لم تدع شارعاً كبيراً حتى مرت به، كان مكبر الصوت فوقها والرجال بداخلها، أحدهم يمسك السماعة يهتف: بشرى لأهل البلد الكرام.. بفضل جهود السيد (فلان) و(فلان) و(فلان) وافقت الحكومة على بناء مصنع للغزل والنسيج فى البلد.

كان زحام حولها، وفرحة فى كل دار.. أكدت ميكروفونات المساجد النبأ.. بعد أذان الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.. أذاعوه، سأله أحد الغرباء من داخل القطار "ماذا حدث؟ قال: "ستبنى الحكومة مصنعاً فى بلدنا".. وغادر القطار المحطة بالغريب.. جلس على الكرسى الأخضر الطويل.. سأل رفيقاً له عن حجم المصنع المنتظر قال: يقال إنه سيقام على مساحة كبيرة جداً فى المثلث ما بين النهر والطريق المؤدية إلى الترعة الجديدة، أكد لنفسه أن عدد من سيعملون به لابد أن يكون كبيراً.

■ ■ ■

(منذ زمان.. حمل سلة صغيرة بها سودانى ولب.. تنقل من قطار لآخر.. عرف بلاداً كثيرة، فى الصيف كان يبدل السلة بدلو يدور به على المسافرين يبيعهم المثلجات.. التقى بنعمة على أحد الأرصفة البعيدة تبيع سكر النبات، دعاها إلى بلده، وأسكنها الحجرة القديمة.. حين زهد فى السفر آثر أن يكون حمالاً على الرصيف).

الشبان والرجال يتجمعون عند المعلم الفكهانى، على الحجر الصغير يجلس فى منامته منزوياً، لا يشارك فى الحديث.. فقط يفتح علبته الصفيح ويخرج الورقة والتبغ، يضع التبغ فى الورقة الرقيقة، يبل الورقة بلعابه.. يلف، يشعل السيجارة، يشد نفساً طويلاً، يلتفت إلى الجالسين والدخان الكثيف قد غطى وجهه.

قال أحدهم: إنه ضحك على الذقون.. رد المعلم الفكهانى: لكن.. المساحة حددت قال: شغل انتخابات.

(- يا أستاذ هل تضحك الحكومة على الناس؟؟ جاء صوته ضعيفاً من مكانه على جانب الكشك).

فرك الحمال السيجارة فى الأرض ولم يفهم.

حينما قل مرور السيارات القادمة من البلاد البعيدة.. وجاءت أصوات الديكة. ونُظف المقهى وأغلقت أبوابه.. وظلت أنفاسه تتردد والسكون.. السكون..السكون.

كان يرتدى الحلة الزرقاء، حليق الذقن والشعر.. يسير على الطريق المسفلتة عبر الحقول مع الجموع.. على بعد، كانت مداخن كثيرة يتراقص فوقها الدخان الأسود.. رأى على جانبه رفاق المقهى والبوظة والرصيف.. ورأى القطار القادم من بعيد دون صوت يبتسم.

النحات

و داوم التفكير لفترة طويلة، وهمد جسده، واستسلم لغفوة لذيذة، وكان آخر ما ردده قبل أن يتغلب عليه النعاس "الكسل أمتع من بذل الجهد". ٬

عزل

النحات نفسه فى غرفته، رفع القبعة على رأسه ثم أعادها إلى مكانها، مرر أصابعه الطويلة القوية بين شعيرات لحيته الكثة، مسح عرق جبينه بكُم معطفه الذى تتناثر عليه بقع لونية.

انعطف نحو الكرسى الطويل فى منتصف الغرفة، وأراح رأسه المجهد على مسنده، رفع النظارة الدائرية الخفيفة ثم أعادها إلى أرنبة أنفه الدقيق.

تأمل قطعة الحجر الهلامية التى تتحداه، تقف صلبة، عنيدة، لا تستجيب لأدواته المعدنية الراقدة إلى جوارها، إزميل له شفرة حادة، يضئ حافتها النور الساقط من النافذة الوحيدة.

كيف يخرج الكائن الذى يستغيث به صائحاً؟

- أخرجنى من صلادة الحجر.

لا يدرى ماذا يفعل، ولكنه يعلم تماماً أن هناك فى قلب الحجر حياة تطالبه بالابتعاث.

- كيف يتثنى لى المعاونة فى فك أسْر الكائن المسجون؟ وسأل نفسه: ماذا تريد بالضبط؟

وأجابت نفسه على نفسه "أريد أن أبدع ما يحدد هوية

الوطن".

"عليك أن تحدد ما الوطن؟ هل هو هؤلاء البشر الذين يشتركون فى تاريخ واحد، ولغة واحدة، وتراث واحد، يقيمون على أرض مشتركة، يجتمعون على نهر واحد، وينتشرون على واديه الأخضر؟"

- لا شك أن هذا هو التعريف البسيط لكلمة وطن.

وتساءل مرة أخرى: "هل من رمز واحد يجمعهم؟"

- إننى تخيرت أبو الهول رمزاً للحضارة الأولى.

"وماذا عن باقى الأزمنة؟"

- لابد من رمز يشمل الجميع، ولا يختلف عليه أحد.

" من يكون ؟ "من يكون"؟

هذه هى المسألة، أو المشكلة.

يتردد فى جوانحى نداء الثورة التى جمعت الكل فى واحد، "فهل يكون الرمز لزعيم الثورة؟"

- الزعيم مرحلة مؤقتة، وقد يختلف عليه الناس فى المستقبل، وإن أجمعوا عليه الآن.

"هل أعود إلى ما يرددون فى أغانيهم التى تستنهض الأمة مذكرة أهل الحاضر بماضيهم العريق؟"

"ومن يضمن لى خلود الأغنية؟"

- إننى أريد رمزاً خالداً، تماماً كأبو الهول والأهرامات.

- لقد استحالوا إلى رموز بمرور الزمن، ولو تغلب عليهم الفناء لصاروا أطلالاً كغيرهم من المعابد، والقبور الصغيرة.

"قم إذن واضرب ضربتك الأولى، ولا تجعل عقلك ينشغل بغير البحث، استحضر ماضيك وحاضرك، وأثناء فعل النحت سيتشكل الرمز".

- لا أضمن ذلك، وأخشى أن يضيع جهدى هباء.

داوم التفكير لفترة طويلة، وهمد جسده، واستسلم لغفوة

لذيذة، وكان آخر ما ردده قبل أن يتغلب عليه النعاس "الكسل أمتع من بذل الجهد".

ورأى نفسه هناك فى قريته، وقد عاد طفلاً يجلس تحت ظل توتة، ينقل الطين من جانب النهر، يخلطه بالتراب، ويعجنه بين أصابعه البارعة.

يمر عليه شيخ القرية ممسكاً بعصاه الغليظة، يضرب بها الأرض بقوة، ويلهث فى خطوه متعثراً فى بدانته مثقلاً بكرشه الكبير، ينظر إليه بكبرياء، لا يرى فيه غير صبى يلهو بالطين.

ينتقم من نظرته المتكبرة، فيعيد خلقه بهيئة ساخرة يضعه أمامه لبعض الوقت ليبتسم فى وجهه، لو شاهده أهل القرية لفرحوا به، ورفعوه على أكتافهم بتمثاله الساخر، يقفون به أمام بيت شيخ البلد لإغاظته، ولكنه يعيده سيرته الأولى مجرد قطعة طينية لا شكل لها، يمر عليه الراعى واضعاً عصاه على كتفه ورافعاً ذراعيه ليمسك بأطرافه، يُميل طاقيته الصوفية الطويلة إلى جنب، ويمشى مزهواً بنفسه، ولكن بوجه ماكر يثير الضحك، ولا يدفعك إلى السخرية منه، فيعيد تشكيل الطينة على هيئته، ويسعد بما أنجز سعادة بالغة "سأحتفظ به" وأسند ظهره إلى جذع التوتة راضياً عن نفسه.

ثم سرعان ما ينتبه إلى أصوات الصبايا العائدات بالجرار التى يتضح الماء من جوانبها، كن يغنين مبتهجات تبدأ الصبية التى تسير فى مقدمة الصف، وتردد الأخريات نفس المقطع فى صوت جماعى، ينتشى قلبه بالغناء.

يمر الصف بالقرب منه، تنظر الصبايا إليه بعيون تفيض شقاوة وبهجة.

ويخفت صوت الغناء حين يقتربن من مدخل القرية.

- كيف أجسّد هذا فى تماثيل من الطين؟

بعدها تقع عيناه على امرأة ممشوقة القوام، ترفع قفصاً

فـارغـاً، تجـر ولدها وراءها، الولد يبكى يريد أن ترفـعـه إلى صدرها، ولكنها مجهدة من رحلة السوق. فيمسك طرف جلبابها ويشدها إلى الخلف متمرداً عليها: خلاص وصلنا.

ثم تأتى الجميلة بجلبابها الأسود السابغ بعينها حزن قديم، تسير الهوينا، تهتز أعطافها بدلال، لا تشعر به، وليس فى ظنها أنه يهم الآخرين. كانت الشمس الواهنة تسقط على وجهها فتزيده وضاءة، فترفع كفها السخية إلى جانب عينها، لتفادى الضوء فيضفى هذا بهاء على ملامحها المخلوقة بدقة، وحكمة إلهية عظيمة

- كيف أنافس الخالق فى خلقه؟

- هل باستطاعتى أنا الإنسان الضعيف نقل هذا الشكل البديع؟ الطين يعجز عن إبداع كل هذا الجمال "فلتحاول، ولك شرف المحاولة".

مد يده ليرفع كتلة الطين غير أنها سقطت فى الفراغ، اختفت قطعة الطين.

"كيف أضعتها؟ أين ذهبت؟ أى روح شريرة خطفتها وأنت فى غفلة؟ لابد من الطينة فى أسرع وقت قبل اختفاء المرأة، وقبل أن يفقدها خيالى، المتوهج بها".

كان يصرخ وهو يبحث عن الطينة الضائعة، فانتبه من غفوته على صراخه، فقام على عجل "وجدتها.. وجدتها..".

ورمى نفسه على الحجر ممسكاً الإزميل بقوة. وبدأ يضرب عليه، يضرب عليه ليفك أسْر الفلاحة السجينة.. إنها الوطن إذن، سأجعلها تقف بقامتها الشامخة إلى جوار أبى الهول الناهض على قدميه، تضع راحة يدها على رأسه، تحثه على القيام.

وعاد - وهو يضرب بقوة فى الحجر - إلى أيام دراسته فى أوروبا حين كان يسأل من أى بلد أنت؟ فيذكر اسم بلاده، ويقولون

له كيف تجرؤ على ذكر جنسية لا تنتمى إليها، إن جنسيتك الحالية تنسب إلى من يحكمك.

- هل أنسب إلى بلد محتل، وأنا ابن الحضارة الأولى؟

- صحيح لكل فرد حقه فى التمتع بجنسية ما، ولكن ليس لك صفة شرعية الآن.

ويجيبهم بألم: لا يجوز حرمانى من هويتى.

ووفق أخيراً فى تثبيت ملامح الوطن فى تمثال.

بيت على الماء

و كان صاحب القارب يجيب على أسئلة الرجل وهو مشغول بنقل أسماكه إلى كيس أسود كبير، ثم طلب من زوجته أن تصنع له كوباً من الشاى، يَعْدل به دماغه قبل الذهاب إلى التاجر.

قارب صغير، يسبح فوق ماء النهر، يقترب من الشاطئ على مهل، على الشاطئ أشجار سامقة، تمد ظلها على الماء.

والحافة المبطنة بأحجار بيضاء، يشقها دَرج يهبط من أعلى ليصل إلى عمق الماء، أعلى الدَرج يجلس رجل كبيرٍ السن، هرب من ضجيج السيارات، وزحام الأرصفة ليسترح قليلاً بين الخُضرة والماء.

ينتبه الرجل للقارب الصغير، ينظر إليه طويلاً يتابع قدومه نحو الشاطئ، كلما دنا منه اتضحت له الرؤية، وقعت عينه على صاحب القارب وهو يجمع خيوط شبكته الراسية تحت سطح الماء.

ورأى امرأة تتوسط القارب، تحرك يدها بالمجدافين الخشبيين، تتحرك بوهن، فلا يسمع للمجدافين غير ضربات خفيفة، متقنة.

وهناك بين ساقيها يلهو طفل صغير، يحاول أن يمد يده إلى المجدافين، فلا تزجره أمه، تنظر إليه بحنو وبين وقت وآخر تميل إليه فتقبله على صدغيه.

الرجل الجالس على الشاطئ لم يرفع عينيه أبداً، كان يحدِّق فى القارب، ويحسد هذه الأسرة التى تعمل بصيد الأسماك

"ليتهم يصحبوننى معهم فى رحلة نيلية هادئة، ويا ليتنى تركت وظيفتى التى أحوم فى دائرتها كثور معلق فى الساقية ليكون لى قارب، انطلق به حيث شئت، وانتقل من مكان إلى مكان.. حرية كاملة وإرادة مستقلة، لا يتحكم فى مصيرى أحد، خالٍ من كل مسئولية...".

فرد ذراعيه عن آخرهما، واستنشق نسمات من الهواء النقى "يا الله.. هل أجرؤ على تحقيق حلمى السعيد؟"

هكذا حدَّث نفسه دون أن يرفع عينيه عن القارب الذى يدنو منه.

رسا القارب على الشاطئ..

واستطاع أن يرى المزيد من أشياء هذه الأسرة السابحة فوق الماء. هناك فى ركن من القارب وابور وأوان بائسة اسودَّت حوافها، وأطباق بها بقايا طعام. ثم رأى قطعاً صَغيرة من ملابس الطفل منشورة على لوح خشبى ممتد على الجانبين.

ألقى صاحب المراكب السلام على الرجل الذى تأمله بنظرة مرحبة

ووجه بشوش.

رد عليه السلام.

وتابع الأم وهى ترفع وليدها لتهبط إلى الشاطئ ببراعة. حط صاحب المركب إناءً ممتلئاً بالأسماك التى تضرب جوانبه المعدنية، وتثب إلى أعلى تود الخروج من حبسها لتعود إلى حياة الماء التى افتقدتها للتو.

- أنت صياد؟ سأل الجالس على الشاطئ.
- كما ترى. أجابه صاحب القارب.
- وهذا رزق يوم واحد؟
- الحمد لله.
- وما تصنع به؟
- أبيعه للتاجر.

كانت الأم قد انتحت جانباً تربت على طفلها الذى يرضع بنهم، تدلك له ظهره، وهو يعبِّر عن سعادته بتحريك ساقيه إلى أعلى وإلى أسفل، ثم يمد أصابعه الصغيرة إلى فمها فتقبلها، يتركها لبعض الوقت ثم يعود إلى صدرها ليستكمل رضاعته.

- من أى بلد أنت؟
- لا بلد لى.
- لكل إنسان مكان نشأ فيه.
- نشأت على هذا القارب الذى ورثته عن أبى، وورثه أبى عن جدى.
- وبعد عمر طويل سيرثه ولدك هذا؟
- إن شاء الله.
- ألا تخشى عليه من السقوط فى الماء؟
- ابن الصياد صياد.
- ولكن من حقه أن تؤمن له سلامته من الغرق وعلاجه عند المرض، فالحياة حق لكل حى.
- لا يفارقنا لحظة، ثم إنه تعود على مساحة القارب فلا يتجاوزها.
- ألن تلحقه بالمدرسة؟ ألا تتمنى له وظيفة تضمن له الراتب الشهرى؟والمعاش؟
- ولكن الحرية التى نحياها لا يعادلها شئ فى الدنيا.
- هذا صحيح.

كان صاحب القارب يجيب على أسئلة الرجل وهو مشغول بنقل أسماكه إلى كيس أسود كبير، ثم طلب من زوجته أن تصنع له كوباً من الشاي، يَعْدل به دماغه قبل الذهاب إلى التاجر.

- تشرب شاياً يا أستاذ؟
- شكراً. ولكن دعنى أسألك إذا فكرت فى أن يكون لى قارب مثلك أتنقل به عبر المدن والقرى، أقيم حيث أشاء، وأذهب إلى المكان الذى يروق لى، أسأل عن التكلفة.

- قاربٍ للفُسحة لا للعمل؟
- مثلاً.
- وما يشقيك بذلك، هناك بواخر سياحية تحقق لك أمنيتك.
- دعنا من هذه الرحلات، أريد قارباً صغيراً كهذا، وأجدِّف به، أمرق من تحت الكبارى، وأعبر الجسور وأحط على الجزر الكثيرة التى يحوطها الماء من كل جانب.
صمت لبعض الوقت، وأراد أن يحادث الصياد بلغته لأن نظرته إليه لا تعجبه، هو بالتأكيد يظن أن الرجلِ الحالم هذا يضيع وقته، ويسخر من مهنته، لأنه لا يمتلك بيتاً فى المدينة، ويعيش وحيداً مع زوجته وولده، بلا صاحب، ولا أهل يسألون عنه، فسأله: ما ردك حين أريد مشاركتك فى قارب كهذا؟
- لدى قاربى ولا حاجة لى للمشاركة.
- فلنبتاع قارباً آخر.
- ثم ماذا؟
- يصير القارب قاربين.
- وبعد؟
- نبيع القاربين ونبتاع باخرة لها محرك قوى نخوض بها النهر الواسع.
- وبعد؟
- نحيلها بعد أن نصطاد السمك الوفير إلى سفينة كبيرة جداً، نقتحم بها البحر المالح.
عادت الزوجة رافعة وليدها بيد وممسكة كوب الشاى باليد الأخرى، رفعه صاحب القارب إلى فمه ليحسو منه بصوت مرتفع، ولم تغادر الزوجة مكانها وقفت منصتة لكلام الرجلين، وهى تبادل زوجها بسمات خفية ماكرة.
- وماذا بعد أن نمتلك السفينة الكبيرة يا أستاذ؟
- تصير لنا ثروة هائلة نقتسمها، تأخذ نصيبك منها لتقيم لك بيتاً كبيراً يتسع لك ولأسرتك لتستقر على الأرض، وتصبح من

سكان هذه المدينة.

- وكل هذا من أجل ماذا؟
- لتكون سعيداً.
- أنا سعيد هكذا، فلماذا كل هذا الشقاء؟
- أنت سعيد فعلاً؟
- هل شكوت إليك من أى شئ؟
- أنت فقير، فكيف لا تشكو؟
- فقير ولكنى حر.

دلق الصياد ما تبقى من كوبه، ثم مال على كيسه ليرفعه على كتفه.

وعادت الزوجة وطفلها إلى القارب، سحبت وابور الجاز من الركن، وراحت تدفع الكبَّاس بقوة، أشعلت عود ثقاب، فامتدت نار لينة تطلق دخاناً أسود خارج القارب.

وقضى الرجل الجالس على الشاطئ وقتاً طويلاً يرنو مرة إلى الصياد، ومرة إلى الزوجة التى تراعى الإناء الذى وضعته على رأس الوابور، ومرة إلى الطفل الذى مد كفه الصغيرة تداعب سطح الماء.

بعدها قام متحسراً ليعبر السور إلى الرصيف إلى بيته، وابتلعه زحام الناس والسيارات والعمارات العالية.

الشاعر فى المدينة

و فى هذه الليلة انقضت السهرة فى مقهى الشعراء، وعاد كل واحد منهم إلى مأواه، فذهب إلى مقهى الزهور، فوجده مغلقاً. قال: "اذهب إلى مقهى الخُرس، فهو لا يغلق أبوابه أبداً..".

المدينة تراه تظن أنه عبقرى أو شحاذ، شعره الخشن طويل ومهوش، وثيابه قديمة بالية، وغير مهندمة بالمرة، يتأبط أوراقاً بيضاء، ويضع قلماً فوق أذنه.

يمشى مائلاً قليلاً نحو اليمين، تتقلقل قدماه فى حذاء بدون رباط، لا يكف عن المراقبة، ينظر هنا وهناك، فلا يفلت شيئاً. ومن حين لآخر يلتفت خلفه، أو عن يمينه ويساره، لأنه يعتقد أنه يسير بين كثير من الأعداء الذين يتربصون به، ويعتقد أن الحكومة أطلقت عيوناً خفية لمتابعته فى كل مكان.

إذا ابتسم شخص فى وجهه، ظن أنه يسخر منه، وإذا صادف واصطدم به عابر يعتقد أنه يقصد الأذى، وإذا حدّقت فى وجهه عينا فتاة جميلة، قال لنفسه: إنها تتهكم منه.

هذا هو الشاعر الذى قدم من مدينة عريقة كانت يوماً عاصمة الدنيا.

اسمه طه منسوب إلى عائلة كريمة فى مسقط رأسه، ولكن الشعر الذى سلب عقله، وسحبه من عنقه بحبل غير مرئى، ككلب يتبع صاحبه، جعله يترك حياة الركود والاستقرار، ويتخذ طريقه منحدراً مع النيل إلى الدلتا ليتوقف هاهنا فى عاصمة الحاضر التى تتمدد كأنشوطة كبيرة على العنق.

نزل إليها وهو لا يملك خريطة ترسم له المواقع، لا سكن له، ولا

مأوى.

سأل عن مقاهى الأدباء والفنانين، فدلوه على واحدة انضم إلى زمرة تشبهه، قدم كل واحد منهم من بلد، أو من قرية، أو من نجع.

سأل عن أهل بلدته، فدلوه على مكان يتجمع فيه التجار والباعة الجائلون، وحراس العمارات، وعمال البناء.

سأله كبيرهم: وما هى الحرفة التى تجيدها؟

- كتابة الشعر.
- ماذا تصنع يعنى؟
- أكتب البيت بعد البيت حتى تتشكل قصيدة متكاملة.
- إنك تنطق كلاماً لا أفهمه.

وأجابه شيخ آخر يسحب الدخان من مبسم الشيشة.

- نحن نبنى بيوتاً من حجر.
- أى بيوت أنت تجيد بناءها؟
- بيت القصيد.

تبادلوا القهقهات، وأشار واحد منهم بالإبهام والسبابة إلى موقع العقل، إشارة يُفهم منها أن ابن بلدهم مجنون، أكرموه ليوم واحد، أطعموه، ومنحوه علبة سجائر كاملة، ودس كبيرهم بعض النقود فى يده، وأشار إليه بالذهاب إلى مكان آخر يتملكه رجل من بلدتهم "ربما تجيد حرفته، فهى سهلة، لا تشقى بها كما نشقى فى أعمالنا.."

فذهب إليه، وجده يجلس على كرسى ضخم أمامه طاولة عريضة يتناثر على حوافها طحين ناعم، قصَّ عليه قصته، وذكر اسم الشيخ الذى أرسله. قال له وهو حزين من أجله.

- نحن يا ولدى نصنع الخبز من أجل أهل المدينة، ونوزعه عليهم عبر المجلات، أو نرسله إليهم فى منازلهم، هل تصلح لهذه المهنة؟.
- أجرب.
- بدنك هزيل، ولا يقوى على العمل.
- دعنى أقيم بينكم حتى أجيد الحرفة.
- ادخل فتخير لك مكاناً فى ساحة المخبز.

قضى أسبوعاً، وأسبوعاً، وأسبوعاً، يطعم مما يطعم به الخبازون، وعمَّال الفرن، وبالليل يعود فى ساعة متأخرة يلف جسده المجهد فى جوال من أجولة الطحين، وينام بعمق لا يوقظه أحد، هكذا أمرهم صاحب الفرن، يستقيظ مع الغروب، يرش وجهه بقليل من الماء، ويسرع إلى مقهى الشعراء يسمع قصائدهم الجديدة، ويُسمعهم مقاطع سجلها على ورق مطوى على ذرات الطحين.

هذه الليلة لم يرغب فى الذهاب إلى المخبز.. الخبازون صاروا يسخرون منه، يسمع حديثهم الخفى، وهو ملتف بالجوال.

- هذا مجرد مجنون، لا يجيد شيئاً فى الحياة.

- المعلم ضج به.

- ولا يستطيع طرده لأنه منسوب إلى بلدته.

- يقول إنه لا يكلفه شيئاً، ثم إنه لم يُخلق لهذا العمل.

- اسمعه يردد "ربما يكون له شأن فى المستقبل فيذكرنا بالخير".

فى هذه الليلة انقضت السهرة فى مقهى الشعراء، وعاد كل واحد منهم إلى مأواه، فذهب إلى مقهى الزهور، فوجده مغلقاً.

قال: "اذهب إلى مقهى الخُرس، فهو لا يغلق أبوابه أبداً..".

وقال: "زبائنه يتحدثون بالإشارة، فلا ضجيج مذياع، ولا ثرثرة فارغة، يمكننى أن أميل على الطاولة حتى يطلع نهار الغد."

قطع دائرة الميدان ليتخذ طريقه إلى الشارع المؤدى إلى مقهى الخُرس.

وقفت عربة الشرطة أمامه بالضبط...

نزل شرطيان من الخلف، وأمسكاه من ذراعيه، تقدما به إلى الضابط الذى هبط إليه ليجره من ياقة القميص بغضب:

- بطاقتك.

دار بيده حول جسده النحيل، وطه استسلم له تماماً وهو يردد فى سره "هاهو اليوم المنتظر قد جاء..".

"كم مرة أتفادى الوقوع بأيديهم، ولكنهم ينقضون ببراعة النسر على فريسته".

- لا أملك بطاقة.
- أظنك بلغت السن التى يحق لك امتلاك هوية تعرف بها.
- أملك ما يثبت شخصيتى.
- أرنى إياه.

بحث طه فى جيبه، ثم أخرج محفظة نحل جلدها، مرر أصابعه فى فتحاتها حتى عثر على ورقة صغيرة باهتة.

- انظر.
- ما هذا؟
- صورة، نشرتها إحدى المجلات وإلى جوارها قصيدة من تأليفى.
- هذا لا يثبت شيئاً، الصورة تبدى بعضاً من ملامحك. ومكتوب تحتها طه الأسيوطى، ما اسمك بالكامل.
- طه محمد محمود الأسيوطى.
- وكيف أتأكد من هذا؟
- زملاء المقهى، ورجال بلدتى.
- وأين أجد هؤلاء.
- ناموا جميعاً.
- جروه.

واستجاب الشرطيان لأمر الضابط، فشداه من ذراعيه، حاول المقاومة بتثبيت قدميه على أسفلت الشارع، دون جدوى. قدرته أضعف من مقاومة جذبة الشرطيين، وقبل أن يُرفع إلى صندوق العربة، صاح فى وجه الضابط.

- اسمع يا هذا، لا يجوز القبض على إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً.

ضحك الضابط بسخرية

- وأين سمعت بهذا الكلام؟.
- هذا حق من حقوق الإنسان التى لا يعرفها الجهلاء من أمثالك.
- ستعرف من منا الجاهل يا صعلوك.

كرسى البرلمان

و ابتسم العزيزى لانتصاره، وركب السيارة إلى جوار البك، سارت بهما فى الشارع المزدحم بالناس، أخرج ذراعه من النافذة يحيي السابلة مبتهجاً، وقال الناس فيما بينهم: الآن تساوت الرءوس. ٦

المدينة نشطت على غير العادة، لا بسبب أعياد وطنية، ولا بسبب أعياد دينية، السوق الكبير يقام فى اليوم الأول من الأسبوع، والمولد يوافق أيام الأجازة المدرسية، والوقت الآن شتوى، نسمات باردة منعشة، وسحب سوداء داكنة تكاد تلامس سطح الأرض. والمدينة نشطة على غير عادتها. فقد عُلقت اللافتات أعلى الشوارع، وانتشرت صور كبيرة لوجوه معروفة بثرائها، أو مواقعها فى الدولة. ماذا حدث؟

إنه موسم الانتخابات الذى يأتى كل أربع سنوات. وما دخل العزيزى بهذا؟ إنه يُشاهد الآن فى جلباب نظيف، وعمامة بيضاء ملفوفة باتقان حول رأسه.

واليوم.. ها هو يسرع الخطو، يضرب بعصاه الغليظة الأرض، يُمعن النظر بعينه الوحيدة فى حفر الشوارع خشية السقوط، يضرب الأحجار على الجانبين بطرف عصاه، ويهش الأطفال المحدقين حوله.

- إلى أين يا عزيزى؟
- لا دخل لك.

ينحرف يميناً ليدخل الشارع المزدحم بالبائعين والشارين، حين يمر عليهم، يتركون ما بيدهم. وينظرون إليه بدهشة: هل هذا هو العزيزى؟

- يُخيَّل إلىَّ أنه يشبهه.
- بل هو، إنه يرتدى ملابس جديدة.
- إلى أين العزم يا عزيزى؟
- سأسجل اسمى كمرشح فى الانتخابات القادمة.

فيضحكون بمكر، هل أصيب العزيزى بالجنون؟

- مسكين.
- أليس من حقى كمواطن المشاركة فى إدارة الشئون العامة للبلاد.

فيقهقهون، وتضج الضحكات فى أنحاء الشارع.

- لحس الفقر عقله.
- انتظروا لتروا سأكون ممثلكم فى البرلمان وستضطرون إلى انتخابى لأنكم فقراء مثلى.

هذا هو العزيزى الذى يقيم فى عشة خشبية عند مدخل فيلا عبد الحميد بن عبد الرحمن بك. هو حارس الفيلا، لا يقوم من مكانه إلا لإشعال النار فى الإناء الفخارى، يجلس أمامه ماداً يديه، يحدث هذا فى الشتاء كما يحدث فى الصيف. وينقل الجذوات المتقدة إلى شيشة صغيرة، منحها إياه سيده، ولا يكف عن التدخين ليل نهار، ويقوم مرة أخرى حين يسمع النداء، أو الطرقات على مدخل الحديقة الأمامية.

- من؟
- البك موجود؟
- أتشرف باسم حضرتك.

ويذكر الضيف اسمه، فيصعد الدرجات الرخامية القليلة ليعبر الفراندة الرحيبة، يدق الجرس فيُفتح له باب حديدى

معشق بالزجاج المضبب.

يدخل جانب وجهه لينظر بعينه السليمة التى تقع على البنية الضخمة للبك المرتدى (روب ديشامبر) حريرى. يذكر اسم الضيف، فيسمع لصوته صدى محبب إلى قلبه، يتخبط فى الجدران السامقة يقول صاحب الفيلا وهو يفرد طوله المهيب.

- قل له يتفضل.

هذا عمله..

بالإضافة إلى المشاوير التى قد يحتاجها أهل البيت، الست والأولاد والبنات.

يسعى بجلبابه المهلهل، وصداره المضموم إلى صدره بزرائر قليلة، يضرب بعصاه أرض الشارع، يمشى شامخاً، لا يبالى بأحد، فيجتمع حوله الرجال والصبية يناوشونه، هذا يهزه من كتفه، وذاك يشده من طرف الجلباب.

وهو لا يبتسم لأحد أبداً، يحافظ على جهامة سحنته حتى لا يصير هُزءاً للصغير والكبير. ولكن هذا الوجه تنفرج أساريره فجأة، إذا اقتربت منه امرأة، يقف طويلاً يجيب على أسئلتها المتطفلة، يصرِّح بقليل من الوقائع، ويشطح بكثير من الخيال.

- قل الصراحة يا عزيزى. هل الست أجمل منى؟

- أنت قمر، والله. ألست امرأة عكرة الوجه، لا تجيد غير الشخط والنطر.

- بذمتك؟

- أنا لا أحلف بالله كذباً.

- تزوجينى وسأجعلك ست ستها.

- لأقيم معك فى عشتك البائسة.

- سأبتنى لك قصراً أجمل من قصرهم.

فى هذا اليوم الذى ارتدى فيه جلبابه الجديد، ونعله

اللامع، وعمامته الناصعة حجَّز عليه الرجال مادين أذرعتهم من حوله.

- قل لنا يا عـزيزى من الذى ابتـاع لك هذه الأشـيـاء الجديدة؟

- من حُر مالى، إننى أضع القرش على القرش بانتظار هذا اليوم.

- أى يوم يا رجل؟

- يوم تسجيل اسمى كمرشح فى البرلمان.

- أتنافس سيدك يا ولد؟

- كلنا أبناء آدم، وخُلق آدم من تراب. والدستور يكفل لى هذا الحق.

- خلى الدستور ينفعك.

واتخـذ طريقـه، لا يلوى على شئ، دخل من باب القسم، وطلب مقابلة الضابط

- الضابط مشغول.

- قل له هناك مرشح جديد يريد تسجيل اسمه.

وسُمح له بالدخول.

داس على سجادة سميكة، مـاداً عـصـاه أمـامـه، وعـينه الوحيدة دارت فى المكان لتحدد موقع الضابط. فرآه خلف مكتبه، يرفع سماعة الهاتف، ليحادث شخصاً على الخط الآخر.

أمام المكتب كرسيان، أحدهما فارغ، والآخر يجلس عليه رجل، مشدودٍ إلى مكالمة الضابط. أراح جسده على الكرسى الوثير جاعلاً عصاه تحت إبطه، التفت إليه الرجل الجالس أمامه. ولكن العين السليمة لم تستطع تحديد ملامحه فى النور الخافت، ثم تعرف على صوته، فقام فزعاً ليقف أمامه شاداً طوله إلى آخره، والعصا سقطت على الطاولة فكادت

تطيح بالأكواب.

- ماذا تريد يا عزيزى؟ سأله الضابط.

- كنت.. بعد إذن سعادتكم أود لو أسجل اسمى ضمن المرشحين.

- ماذا تقول؟ صرخ عبد الحميد بك. وانتفض جسده الضخم، وهو يريد الإمساك بجلبابه النظيف.

- اهدأ يا بك.

- ومن الذى أقنعك بهذا يا عزيزى؟

- أنا الذى أقنعت نفسى، حينما قرأ لى أحدهم ورقة من صحيفة قديمة، احتفظت بها، ووفرت الجنيه على الجنيه، حتى تأتى اللحظة المناسبة.

وأخرج ورقة صفراء مطوية من جيب صداره اللامع، أخذها الضابط وقرأها بصوت مرتفع.

- إن إرادة الشعب هى مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجرى على أساس الاقتراع، وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أى إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

انتهى الضابط من القراءة، وغمز بطرف عينه لعبد الحميد بك، ثم وقف أمامه، مد يده إلى كتف العزيزى قائلا: عدَّاك العيب يا عزيزى.. هذا حقك فعلاً، ولكن نسيت كلام الله، لقد خلقنا طبقات لحكمة لا ندركها.

- أنا مُصر على تسجيل اسمى.

وفتح الضابط دفتراً كبيراً سجل بيانات العزيزى. وقال له: الآن أنت مرشح. ثم أشار إلى عبد الحميد بك: حلها بمعرفتك. ففهم البك قصده. ولان وجهه، وإن لم يستطع بعد السيطرة على مشاعره ثم سحب العزيزى من يده: الآن نعود إلى الفيلا كزميلين.

ابتسم العزيزى لانتصاره، وركب السيارة إلى جوار البك، سارت بهما فى الشارع المزدحم بالناس، أخرج ذراعه من النافذة يحيى السابلة مبتهجاً، وقال الناس فيما بينهم: الآن تساوت الرءوس.

وحين حل ظلام الليل اجتمعوا أمام سور الفيلا ليسمعوا صراخ
العزيزى المكتوم.

كان البك قد أجلسه على كرسى مرتفع وربط ساقيه بحبل غليظ وأمر خادمه بضربه ضرباً مبرحاً على قدميه، والعزيزى يستغيث بأهل المدينة: الحقونى يا ناس.. حرمت يا بك.

ولكن أحداً لم يستطع اقتحام الفيلا.

العربى الشديد

و وقف ممتعضاً يضرب بعصاه على ساقيه، يمنع نفسه فى كل لحظة من الهجوم على هؤلاء الهمج الذين لم يبدوا أى احتفاء بسماعه. ؛

قالت زوجته، عاد مبكراً على غير عادته، كنت أمام وابور الجاز أراعى (حلة) المحشى، ورأيته يقف على الباب فارداً ذراعيه على الجانبين، يتصبب العرق من وجهه، ويعم باقى جسده حتى أنى عصرت الجلباب فيما بعد، ونشرته على الحبل، دون أن أضيف إليه قطرة ماء واحدة.

وقف يتأملنى طويلاً ثم سقط على وجهه مغشياً عليه، رفعت صوتى بالصراخ، فقدم الجيران فى الحال، رفعوه إلى فراشه، وكان ثقيلاً جداً، لأنى حاولت الإمساك بذراعه المدلاة إلى أسفل لأضعها على صدره اللاهث، كانت أثقل من حضنه فى لحظاتنا الحميمة، مددوه، وسحبوا الغطاء على بطنه العالية، وأنا أمسكت الفوطة لأمسح الزَبد السائل على جانبى فمه.

- مالك يا عربى؟

كان ينازع وهو عاجز عن الكلام.

هزه رجل من الجيران.

- شد حيلك يا جمل.

ظل الجمل يئن من وطأة ألم لا يعرف له مصدراً.

حين جاء طبيب المركز مال عليه بالسماعة وقاس له ضغط

الدم ودرجة الحرارة.

كان العربى يشير إلى بطنه المنتفخة بأصبع مهزوزة.

- هنا؟؟

- آه..

ولا ندرى هل يقصد الإجابة أم صرخة الألم.

طلب أن نعمل له كمادات، وكتب (روشتة) بسيطة.

- لا تقلقوا...

مع دخول الليل أفاق العربى وأشار إلينا لنرفعه إلى الوسائد التى حشرناها خلف ظهره، حدّق طويلاً فى أنحاء الغرفة، وأشار بعد أن دار بأنفه يتشمم المكان إلى الطبق الموضوع أمام ولدنا الصغير.

- أحضر لك العشاء؟

طلب صدر الدجاجة وطبقاً من ملفوف الكرنب.

سألته:

- أجهز لك الصينية على السرير؟

رفض، وقام فارداً طوله ليهبط إلى حصير الأرض.

ابتسم الجيران، وصفقوا بفرح.

- الله أكبر.. بطل والله..

واستعادوا زمانه القديم.

■ ■ ■

تداولوا الحديث عن بطولاته التى شرّفت البلد، وهو لم يرفع عينه إليهم، كان يأكل بشراهة.

قص الكبار للصغار كيف كان المأمور ينظم البطولة تلو البطولة، فى عيد قيام الثورة، وعيد الجلاء، وعيد الفلاح.

يأمر النجارين بإقامة طبلية خشبية مرتفعة عن الأرض تتوسط فناء المركز، يُرفع مكبر الصوت على شجرة الكافور السامقة، وتمد أسلاكه إلى غرفة الحراسة الأمامية، ويُدعى

المحافظ ومدير الأمن وعُمد القرى وشيوخ البلد وأعيانها تمتلئ بهم الكراسى المذهبة الأمامية، ثم تتدرج أنواع الكراسى وفقاً لمستوى الحضور حتى تصل إلى مجرد دكك خشبية طويلة ومائلة، ويزداد ميلها مع ثقل الأبدان التى تقتعدها، أما الأولاد الصغار فيتوزعون بين الأرجل، وفى المسافات الفارغة بين الصفوف، والأكبر سناً من المراهقين يتسلق الأشجار المحيطة بالمكان، والرشيق منهم يدفع جسده إلى الأسوار المرتفعة، أما النسوة فإنهن يعتلين أسطح البيوت القريبة، يخفين الوجوه بالطرح السوداء، أو يطللن من الشرفات والنوافذ المطلة على المكان.

ويُسمع للميكروفون نفخة قوية، تعقبها بسملة وتكبيرة تهيئ حنجرة المعلِّق، وتضبط درجة الصوت للسماعات، ويصمت الجميع يرقبون دخول البطل الذى ينتظره الحديد فوق الطبلية. أقراص مدكوكة لها جهامة ودُكنة بغيضة كأنما هى العدو الرابض فى ساحة المعركة، ويقوم بين الأقراص المتحدية عمود طويل قوى يربط بين القرصين الأقل وزناً.

لم يدخل البطل بعد...

إنه هناك فى غرفة السلاح، ينطر العضلات القوية، ويلوى عنقه الذى يُسمع له فرقعة قوية، ينزل على ركبتيه ويقوم على ساقيه، يحرك بدنه المهول يميناً وشمالاً، ولا يحفل بعيون الأولاد المحدقة بين قضبان الحديد لنافذة رمادية طويلة، لها شيش مفتوح على آخره يسمح للهواء البحرى بالدخول ليعبئ البطل منه رئتيه، ينشقه فى سحبة طويلة ممتدة، ثم يدفقه زفيراً حاراً تهتز له دفاتر العسكرى القابع أمامه ممسكاً بالقلم بين أصبعيه مهيأ لأى أمر قد يصدره سيادة المأمور فجأة.

المأمور يدخل أولاً مصطحباً ضيوفه الكبار، يندفع كرشه المخنوق فى الحزام الميرى الذى يحكم حُلة عسكرية بانت خطوط المكواة على حواف الأكمام وواجهة السروال. أما المحافظ فإنه

يلمع كله فى حُلته الملكيـة ذات اللون الكحلى، يفك أزرارها حين يريد الجلوس، ويعـقـدها عند القـيـام، وإلى جـواره مـدير الأمن شامخاً بأنفه متأففاً من روائح البشر الذين يتلطعون إليه بانبهار.

يدخلون جميعاً مع صخب الميكروفون...

"ها هم رجال ثورتنا المجيدة يتقدمون قوى الشعب العامل. ها هم رعاة الرياضة والرياضيين، العقل السليم فى الجسم السليم كما يقول زعيمنا الملهم، زعيم الأمة العربية من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر. بشرى لكم يا أهل بلدتنا الكرام، لقد جاءكم زعيم منكم يرى أولاد الكادحين، ويمنحهم الفرصة للوصول إلى عنان السماء...".

ثم يعاود الصراخ..

"والآن مع كلمة السيد المحافظ.. حفظه الله".

فيعقد أزرار الجاكت ثم يصعد إلى الطبلية الخشبية المرتفعة بين أقـراص الحـديد الملقـاة على الطاولة، ارتجل كلمـة بصـوت هادئ اختلطت بأصوات الحضور فلم يُسمع منه كلمة واحدة غير "أنقل إليكم تحيات زعيمنا وقائدنا الرياضى العظيم..".

والآن مع كلمة السيد مدير أمن المحافظة...

وقف ممتعضاً يضرب بعصاه على ساقيه، يمنع نفسه فى كل لحظة من الهجوم على هؤلاء الهمج الذين لم يبـدوا أى احتـفـاء بسماعه.

"والآن مع كلمة السيد مأمور المركز...".

نظر بثقة كما ينظر الحاكم إلى رعاياه، قدّم التحية للسيد الزعيم البطل والمحافظ ومدير الأمن، ثم قال باختصار سعد به الناس المتلهفون لمثول بطلهم "لن أطيل عليكم.. ولنجلس بهدوء حتى نستمتع بهذه الأمسية لمشاهدة بطل مصر والعالم العربى سيد العربى".

وأخيراً يدخل العربى فى سروال أسود قصير بهتت ألوانه

يضغط على ما بين فخذيه بإحكام ويتهدل عند الصدر حتى تبرز الحلمتان الداكنتان بوضوح.

لم ينشغل المراهقون من الأولاد بغير النظر إلى أسفله همس ولد من فوق السور لجاره: أطول من عصا مدير الأمن. وأجابه الآخر ببراءة: بمقدوره الإمساك بهم جميعاً وضربهم حتى يلفظوا أنفاسهم.

دخل العربى كما يدخل المروِّض على أسده...

هو يعلم أنه الأقوى والأشرس ولكن عليه ألا يبدو متخاذلاً، سيطرته على خصمه تأتى من شجاعة المواجهة، وهكذا الحديد.

يظل يرفع الثقل بعد الثقل، وكلما ضاعفوا له تمكن - بعون الله - من رفعه إلى أعلى حتى هزم الحديد جميعاً.

■■■

- أين أيامك يا بطل؟

- بخير يا حاج.

يجيب العربى وهو ينهش فصوص الصدر الأبيض، يلوكها على مهل ويدفع الملفوف إلى فمه، فتنتفخ وجنتاه، ثم قلب طبق الشُربة فى جرعة واحدة.

قالت زوجته: اطمأن الجيران وعادوا إلى بيوتهم وسمعت أحدهم يقول للآخر: صحته عال العال، لا يأكل هكذا إلا وحش.

وعاد العربى إلى فراشه..

قام الأولاد إلى غرفتهم، ثم عدت إليه لأجده على وضعه يطل من تحت الغطاء برأسه الخفيف الشعر مرتاحاً إلى الوسائد الطرية خلف ظهره، أشار إليّ: اطفئى النور وتعالى إلى جوارى.

رفعت بدنى إلى السرير، وشعرت بيديه تبحثان عن خصرى، أخذته على صدرى، فنقل كفه إلى رحابته، حين تمكن منه أخرجه ليملأ به فمه، وأنا أهدهده كطفل كبير، لا يريد الفطام.

وسمعت أنفاسه الهادئة تتردد برتابة. قلت: عاد إلى أيامه

الأولى. رحت فى غفوة لا أعرف هل طالت أم قصرت؟ وقمت على هزة عنيفة تسحبنى

خارج الفراش.

رأيت ملاكاً بجناحين يرفرفان حولى، أطارا الغطاء والوسائد. وللعجب رأيت العربى يحلق معه رغم ضخامة جسده، أمسكت بطرف جلبابه، دون فائدة، كان يصعد، ويصعد، حتى اختفى من الغرفة.

قمت فزعة لأسحب يده الباردة عن صدرى.

وأدرته جهة الجدار فاستجاب لى دون مقاومة.

كان قد انتهى.

الريفـى

وهبط الدرجات بسرعة فائقة، رمى بجسده الضخم فى حضن صديقه، كنا نرقبهما بمحبة حتى أن الدمعة سالت تحت نظارة عم محمود البقال.

كنت ألعب الكرة مع أبناء الحى، فى أرض تشغل مساحة بيتين، هُدَّما منذ فترة، ولم يفكر أحد فى إعادة تشييدهما، نلتقى فى هذه المساحة بعد العصر بقليل، نقسِّم أنفسنا فريقين، ونلعب، نلعب حتى دخول الليل.

لم نبدأ بعد...

بعض الأصدقاء تأخر عن موعده، فجلسنا فى ظلة الجدار فى انتظارهما.

ورأيته يقبل نحونا، يرتدى جلباباً ريفياً، ويعتمر طاقية من الصوف البنى، ويرفع بذراعه سلة كبيرة مغطاة بقماشة بالية.

أشار إلىّ بتردد، فقمت إليه، أخرج من صداره ورقة مطوية، فردها بحرص، وسألنى: هل تعرف هذا العنوان؟

طالعت الورقة المكتوبة بخط ساذج.

قلت له: هذا شارعنا، ولكن رقم البيت لا أعرفه.

- هل تدلنى على الشارع وهناك نسأل عن الرقم؟

استأذنت من الأصدقاء، قلت لهم.

- سأدل الحاج على العنوان المكتوب، وأعود إليكم حالاً.

سرت إلى جواره، نتفادى زحام الشارع الكبير.

ملامح وجهه طيبة جداً، ينظر إلىَّ بامتنان، واعتذر لى أكثر

من مرة.

– أخذتك من أصدقائك، لكنى رجل غريب، ولا أعرف هذا الحى جيداً.

– هل لك قريب يسكن شارعنا؟

– صديق عرفته أيام الجندية.

– وما زلت تذكره؟

– إننى أتردد عليه منذ خروجه من الخدمة، وهو كذلك يزورنى فى قريتى، وفى الزيارة الأخيرة، قال لى إنه سيترك الحى الذى يسكنه، فقد عثر على شقة كبيرة تتسع له ولأولاده وكتب لى عنوانه الجديد.

– هذا هو شارعنا، تذكره جيداً، إنه يقطع الشارع الكبير بالعرض، وعلى جانبيه تقام سوق يومية، وكما ترى هنا الخضراوات والفواكه من كل صنف، كذا باعة الطيور، والجزارون، وتجار الأدوات المنزلية ومحلات البقالة، سنسأل عم محمود البقال فهو أكبر التجار سناً، ويعرف أهل الحى فرداً فرداً.

وجدناه جالساً على دكته الخشبية القديمة، يهش الذباب بمنشة تشبه ذيل الحصان، قلت له: السلام عليكم يا عم محمود.

رفع عينيه بالنظارة السميكة، وهش ذبابة لا وجود لها، وتقدم إليه الرجل الريفى ليسلم عليه.

وقلت: هذا رجل غريب يسأل عن ساكن جديد فى حينا.

– ما رقم بيته؟

– الخامس والعشرون.

– ما اسمه.

فقال الريفى بأدب جم.

– محمد محمود المصرى.

سرح عم محمود البقال لبعض الوقت، ثم قال مهللاً.

– البطل.

– هو بعينه.

وقام عن دكته بهمة أثارت دهشتنا.

- تعال.

سرنا وراءه، وهو يخب فى معطفه الواسع، يميل بوجهه إلى الأمام، ولا يكف عن هش الذباب.

دنا الريفى منه، وأمسك بيده خشية السقوط على وجهه، فقال له العم محمود مستنكراً.

- صحتى حديد، هل جئت من بلده الجنوبى؟

- قضينا معاً ست سنوات فى خنادق الجبهة العسكرية.

- أنت بطل أيضاً.

- لا بطل ولا يحزنون.

- كيف وقد صمدت فى وجه الأعداء لست سنوات كاملة؟

- هذا واجبنا نحو الوطن.

- صحيح على كل فرد واجبات نحو المجتمع، وعلى المجتمع احترام هذا الفرد.

كنت أتابع حوارهما، وأدهش من هذا الفلاح الفقير الذى يؤمن بوطنيته، ولا يرى فى قضاء ست سنوات من شبابه بين رمال الصحراء ومجهود العمل العسكرى الشاق غير واجب ملزم به.

وقبل أن ندخل من باب البيت، التفت عم محمود وقرصنى من ذراعى

وقال مداعباً:

- هل ترى فى جيلكم أمثال هؤلاء الأبطال؟

- إذا منحنا المجتمع حرية النمو نمواً حراً وكاملاً.

- لا نأخذ منكم غير البراعة فى الكلام، أما الفعل.

وصفق بكفيه رافعاً رأسه إلى أعلى.

- يا بطل.

فلم يستجب أحد لندائه، فأعاد الكرة ولكن بذكر اسم صاحب العنوان، فأطل وجه عريض أسمر، له شارب كثيف، وأنف طويل، وعينان عميقتا السواد.

- من؟

قال عم محمود وهو يستند إلى سور الدرج.

- صاحبك يسأل عنك.

فحدق البطل فى الوجه الخجول، كانت العمامة الكبيرة تخفى مساحة كبيرة من الجبهة، فلم يتعرف عليه فى الظلمة الخفية التى تلف مدخل البيت.

قال الريفى: أنا يا محمد.

- عطية!!

وهبط الدرجات بسرعة فائقة، رمى بجسده الضخم فى حضن صديقه، كنا نرقبهما بمحبة حتى أن الدمعة سالت تحت نظارة عم محمود البقال.

- وصلت بصعوبة؟ سأل محمد صديقه.

- البركة فى الحاج، وهذا الشاب الشهم.

- تفضلوا.. قالها وهو يمسك بأيدينا جميعاً.

اعتذر عم محمود قائلاً: لقد تركت المحل وحيداً.

وقلت له: تركت الأصدقاء فى انتظارى لنبدأ مباراة جديدة.

وأصر الرجل على دعوتنا: اشربا الشاى.. المحل فى أمان يا عم محمود، وأنت لا بأس من ترك مباراة اليوم، لابد من الاحتفال بزيارة صديق العمر.

وسأل عم محمود: إلى هذا الحد يتعلق أحدكما بالآخر؟

- يا عم محمود ست سنوات هى زهوة عمرنا، كنا ضمن طاقم دبابة واحدة، عطية كان السائق، وأنا كنت الرامى، فى الحرب الأولى عدنا بهزيمة لا نستحقها لأننا لم نختبر، وفى الحرب الثانية عبرنا القناة وحطمنا الحاجز الرهيب، وانطلقنا تحدونا الفرحة فى أرضنا المحررة.

وقال عطية: كنا ننام فى حفرة واحدة، ونطعم من إناء واحد، ويقص كل واحد من أفراد الطاقم أفراحه وأحزانه، ويحدثه عن أحلامه حتى صرنا أسرة واحدة، لا نفترق.

وتابع صديقه محمود:

- وقطعنا عهداً ألا تنقضى صداقتنا بانقضاء فترة الجندية، وصرنا نتزاور، مرة أذهب إلى قريته، ومرة يأتى لزيارتى هنا، مهما غيرت العناوين.

- دامت لكم صداقتكما يا أبطال.

واتجه عم محمود نحو الباب، ولحقت به.

حاول محمد أن يحجز بيننا وبين الباب، ولكن كل واحد منا أصر على الخروج، ليسعد هو بلقاء صديقه، ليعيدا معاً ذكرى أيامهما الحميمة.

- ولكن هذا لا يجوز.

- سأمر عليك بعد أن أغلق المحل.

- سأنتظرك.

- هذا وعد.

- وتحضر معك هذا الشاب.

وسألنى:

- ألست من سكان الحى؟

أجبته:

- أسكن فى رقم ٩ .

خرجنا إلى نور الشارع، وزحام الناس، وعاد محمد ليصعد الدرج مع صديقه الريفى، ليقضى أمسية رائعة، لا تنفد متعتها، ولا انقضاء لحكاياها.

التمثال

و حينما جلس بين زملائه في صفوف الدرس، كان عقله لم يزل مشغولاً بكلمات التمثال، ذلك أن الكثير منها كان واضحاً، والقليل من الألفاظ ظل غامضاً، يحسه، ولكنه يعجز عن تفسيره.

غادر محطة القطار بأرصفتها الكثيرة، وتقاطعاتها المتعددة، وبرجها العالى ذى الجهات الأربع بساعاتها التى تنام على أزمنة مختلفة.

الآن يستقبل الميدان الواسع، بضجيج سياراته وزحام المسافرين، الداخلين إلى المحطة، والخارجين منها. سيسأل عن العنوان المكتوب على ورقة صغيرة، ويتخذ الطريق الذى وصفته أمه. هذا هو مشواره الأول للمدينة الكبيرة، زارها مرات بصحبة الأم يتخذ مكانه إلى جوارها فى السيارة ليحدق خارج الزجاج المغلق، يعدد طوابق العمارات، ويتأمل الوجوه، وواجهات المحلات بتماثيلها النسائية والرجالية، تعرض طرز الملابس الشتوية إذا كان الوقت شتاء، والملابس الصيفية الخفيفة إذا كان الوقت صيفاً.

تطلع إلى نافورة الميدان التى تدفق ماء لا ينقطع، وتدفع نسمة رائقة ترطب حرارة الطقس. إلى جوارها قاعدة رخامية شامخة ترفع حصاناً برونزياً له عضلات قوية نافرة، يمتطيه رجل بزى الجندية القديم، له طربوش يتدلى منه زر طويل، وللسراويل خطوط بارزة على الجانبين، ويسقط من خصره

سيفٍ له نصل حاد تلمع أطرافه فى بقعة الشمس التى تنحرف قليلاً نحو الغروب.

يميل الجندى بجذعه الأعلى نحو شخص غير مرئى، ويمد له يده اليمنى بورقة مطوية. وفمه الصامت مفتوح قليلاً كأنه ينطق بكلمات ثبتها الزمن، فى صفحات الكتب، وظلت معلقة هنا ما بين حنجرة الجندى، وأذن الرجل الغائب عن قاعدة التمثال.

لمن هذا التمثال؟

دنا من الحلقات الحديدية المنخفضة التى تحوطها خضرة زاهية، عبرها بحذر، بعد أن تلفت يميناً ويساراً خشية أن يزجره أحدهم. أو يشده من خلف صائحاً فى وجهه: ممنوع الاقتراب من هذه القاعدة.

لم يمنعه أحد.. فاتخذ طريقه بين ممشى مفروش بالحصى بين أحواض الزهر وحوض النافورة.

صار الآن بجرمه الصغير متطلعاً إلى الساق الأمامية المرتفعة عن السطح الرخامى. التمثال بكتلته المهيبة، جعله أصغر مما يبدو لنفسه أو للناس من حوله.

للقاعدة لوحات رخامية ناصعة، منحوت عليها بحروف بارزة كلمات لا تبدو إلا لمن يقترب اكثر. فاقترب.

مدد طوله متشبثاً بالقاعدة، ليفك الحروف الداكنة وقرأ المكتوب "لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم".

أراد الانتقال إلى الجهة الأخرى فسمع الصيحة من خارج دائرة الخضرة.

- ممنوع الدخول إلى هذا المكان.

- آسف أيها الشرطى.

وعاد من حيث أتى.

- كيف دخلت إلى هذا المكان؟ ألم تقرأ اللافتة.

- لم أرها، جئت وحيداً من بلدتى لأبتاع لأمى شيئاً لا يتوافر فى أسواقنا.

- وكيف ستتعرف على المحل؟

- معى العنوان، إنه مكتوب فى هذه الورقة.

طالع الشرطى الحروف المكتوبة بخط ساذج، طالعها بصوت مرتفع، وهو يخطئ فى النطق، وكان الولد يصحح له من كثرة ما ردده أمام الأم ليثبت جدارته.

ووصف له الشرطى الطريق.

- ولكن لمن هذا التمثال يا حضرة الضابط؟

- بل قل يا حضرة الشاويش، ألست ابن مدارس ألم تلتق بهذا الرجل فيما تدرس من علوم التاريخ؟

- سندرس التاريخ الحديث العام القادم أى بعد انقضاء الأجازة الصيفية.

- سيلقاك هناك بين صفحات الكتب، هم - والعهدة على الراوى- يقولون إنه ابن قرية تقع بالقرب من عاصمة الإقليم، (تعلم فى كُتَّاب هذه القرية، والتحق بالجندية، حتى صار وزيراً للجهادية. ولما رأى ظلم الأجنبى المحتل ونهبه لمحاصيل الأرض، قاد مظاهرة خرجت من الأزهر إلى قصر الأمير، وهناك قدم له ورقة مثل هذه التى يمسكها بيده، تطالبه بإقامة العدل فى البلاد، ونطق فى وجهه بهذه الكلمات المرسومة على جوانب القاعدة الرخامية).

- شكراً لك يا حضرة الشاويش.

- وتخليداً لذكرى هذا الرجل أقيم متحف يحمل اسمه فى قريته الصغيرة، وإذا زرت هذا المتحف فستجد كما يقولون - والعهدة على الراوى- زيه العسكرى، وطربوشه وسيفه وكل هذه الأشياء التى يجسدها هذا الرسم.

- سأطلب من مدرس التاريخ أن يعد لنا رحلة لمشاهدة هذه

الأشياء على الطبيعة.

xxx

حينما جلس بين زملائه فى صفوف الدرس، كان عقله لم يزل مشغولاً بكلمات التمثال، ذلك أن الكثير منها كان واضحاً، والقليل من الألفاظ ظل غامضاً، يحسه، ولكنه يعجز عن تفسيره.

دخل المعلم مشرقاً، تعلو وجهه بسمة رائعة يستقبل بها عاماً جديداً، رد التلاميذ على تحيته، وأنصتوا لكلماته التى تتمنى لهم عاماً يكلل بالنجاح والتوفيق.

ثم فاجأهم بالسؤال عما فعل كل واحد منهم خلال الإجازة الدراسية، فتحدث أحدهم عن زيارته للبحر المالح مع أسرته، وتحدث آخر عن معاونته لأبيه فى الحقل، واستفاض البعض فى الحديث عن زيارات الأهل والأقارب فى المدن البعيدة، وحين جاء دوره وقف شارداً، ولم يجب بشئ.

فسأله المعلم: ألم تفعل شيئاً البتة؟

أفاق من شروده ثم حاول العثور عن بداية لقصته مع التمثال، فقال متلعثماً: (رأيت تمثالاً عجيباً).

- أى تمثال هذا؟

- فى المدينة الكبيرة، كان لرجل برونزى يمتطى حصاناً برونزياً، ينحنى قليلاً إلى الأمام ليقدم ورقة مطوية لأمير لا وجود له.

- وأين عثرت على هذا التمثال؟

- فى ميدان المحطة بالقرب من نافورة لا ينقطع ماؤها ليل نهار.

- الآن عرفته.

- قال لى الشرطى إن للرجل متحفاً أقيم فى قريته القريبة من عاصمة الإقليم.

- هذا صحيح، وستتعرف على هذا الرجل فى درس التاريخ

حين نبدأ درس التاريخ.

- ولكننى حفظت الكلمات المنحوتة على جانبى القاعدة الرخامية.

ورددها المعلم بصوت قوى حلق صداه فى أركان الفصل وخشع التلاميذ، وانسحبت عن وجوههم الابسمة التهكمية التى أبدوها عند بداية الحديث.

- ولكنى لا أدرك كل المعانى يا أستاذ.

- فى الأصل يولد الإنسان حراً، الكل سواسية، ولكن الكثير من الظروف التى تحيط به، تؤدى إلى بعض التفرقة.

- ما معنى سواسية يا أستاذ؟

- جميع البشر أحرار ومتساويون فى الكرامة والحقوق، والكل قد وهب عقلاً وضميراً يزن له الأمور، ويعرِّف بالخير وبالشر.

- هل الجميع يدرك ذلك؟

- بالتأكيد..

- فى داخل كل نفس إنسانية نزوع للتعامل بروح الإخاء.. فالإنسان أخ للإنسان.

- الواقع شئ، والكلمات الساحرة شئ آخر.

- على الإنسان ألا يكف عن الحلم بمدينته الفاضلة مهما حاول الشر تقويضها.

- ولكن كيف أدرك هذا الجندى الفلاح كل هذه المعانى؟

- إنها معان يؤمن بها الإنسان على مر العصور وعلى تباين المواقع التى يعيش فيها.

- أود لو أكمل ما طالعت بمشاهدة المتحف الذى يضم أوراقه، وسيوفه، وزيه العسكرى.

- سنفعل هذا بعد تعرفنا عليه فى درس التاريخ.

- متى سيحدث هذا يا أستاذ؟

- سنبدأ منذ اليوم دراسة التاريخ الحديث، وعن قريب سنصل

إليه لنتعرف على أحداث عصره، وإنجازاته المهمة، لأنه يشغل صفحات كثيرة من هذا الدرس.

- فلنبدأ يا أستاذ.

وعاد المعلم إلى واجهة الفصل، وقف أمام السبورة ليفرك كفيه، وتطلعت إليه العيون بشغف وكانت جملته الأولى: يبدأ تاريخنا الحديث بمدافع الاستعمار التى عبر بها أسطول كبير، جاء ليدك الثغر، ثم يزحف عبر النيل والطريق البرى إلى عاصمة البلاد.

الفهرس

الكاتب فى سطور..

- يوسف محمد شحاته أبو رية من مواليد يناير عام ١٩٥٥ بمركز ههيا محافظة الشرقية.
- حصل على شهادته الجامعية فى الإعلام من جامعة القاهرة عام ١٩٧٧ وعمل فى مركز البحوث كمدير عام.
- عمل بالصحافة ثم تفرغ فى السنوات الأخيرة للكتابة وصار من بين أفضل مبدعى الرواية فى مصر، ويعتبر من أبرز رموز جيل أدباء السبعينات والثمانينات.
- حصل على جائزة نجيب محفوظ للرواية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ٢٠٠٥.
- أصدر عدة مؤلفات منها سبعة كتب للأطفال ونصوص قصصية وروائية ترجمت عدد منها إلى الإنجليزية والألمانية.
- من مجموعاته القصصية: الضحى العالى عام ١٩٨٥، عكس الريح عام ١٩٨٧، وش الفجر عام ١٩٩٣، ترنيمة الدار عام ١٩٩٥، طل النار عام ١٩٩٧، شتاء العرى عام ٢٠٠٣.
- من رواياته: عطش الصبار عام ١٩٩٨، تل الهوى عام ١٩٩٩، الجزيرة البيضاء عام ٢٠٠٠، ليلة عرس عام ٢٠٠٢ عاشق الحى عام ٢٠٠٥، صمت الطواحين عام ٢٠٠٧.
- كان أميناً عاماً لصندوق رابطة القلم المصرية طوال الأعوام الـ ١٣ الأخيرة من حياته.
- رحل فى يناير عام ٢٠٠٩ بعد صراع مع المرض.

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

يعتز «كتاب اليوم» بثقة قرائه الأعزاء فى أنحاء الوطن العربى، ومن أجل وصوله إليكم فى ميعاده المحدد فى أول كل شهر حسب قيمة الاشتراكات الموضحة فى الجدول التالى:

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيهـا
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

يتم السداد نقداً أو بشيك أو حوالة بريدية أهلية لأمر:

اشتراكات أخبار اليوم

٦ أ شارع الصحافة بالجلاء القاهرة
جمهورية مصر العربية

بطاقة فهرسه

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

أبو ريه / يوسف
الريفى / يوسف أبو ريه
القاهرة: أخبار اليوم، ٢٠٠٩ .
ص، سم. ـ (كتاب اليوم)
تدمك ٩٧١ ٠٨ ١٤٠٨٦
١ـ القصص العربية القصيرة.
أ ـ العنوان

٨١٣,١

رقم الايداع ٤٩٧٧ / ٢٠٠٩

I.S.B.N.977- 08 -1408 - 3

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

صدر عن كتاب اليوم













